أوكتر أس

الكاتبة : سيلفيا أشرف

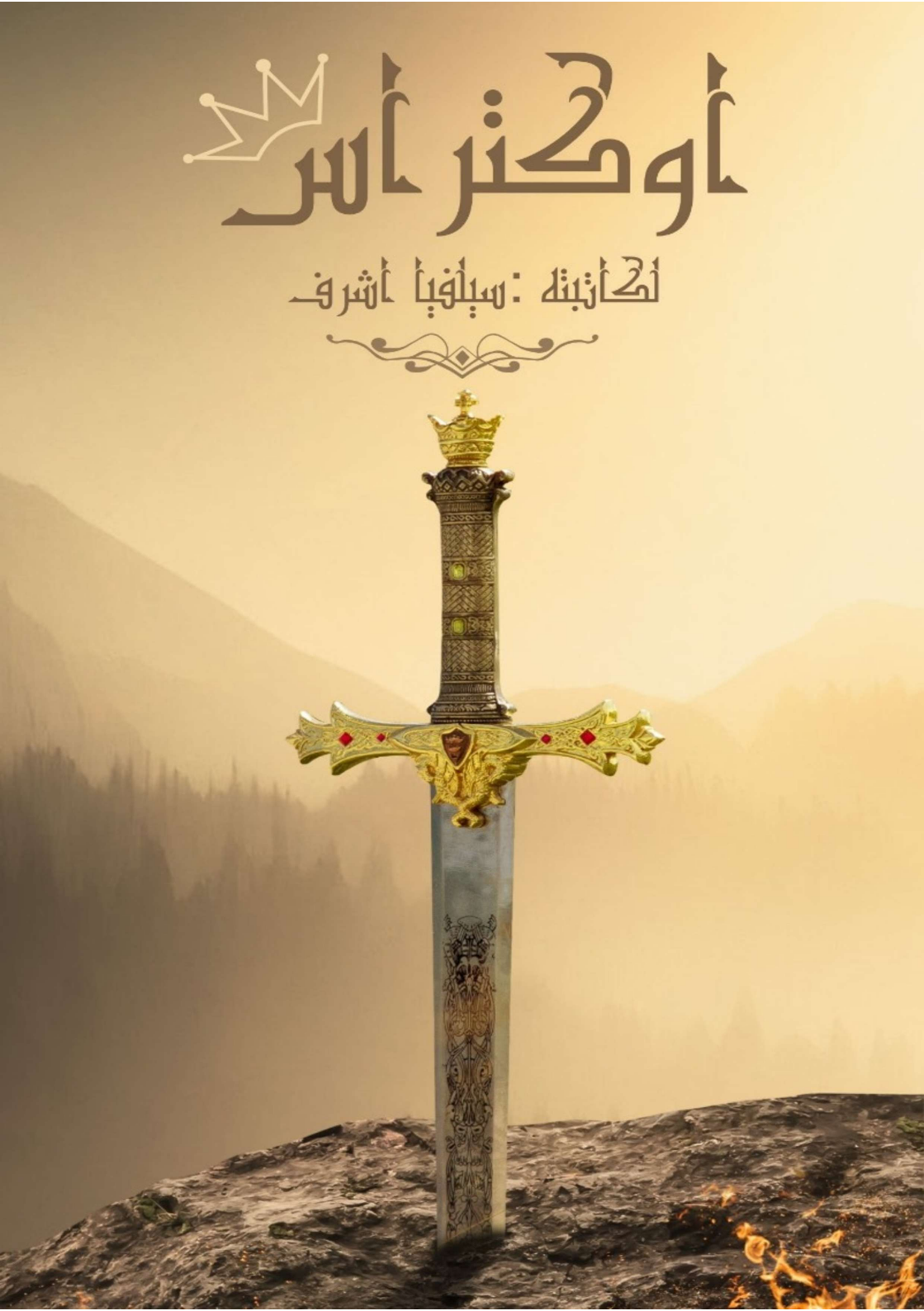

أوكتراس

رواية

أوكتراس

سيلفيا أشرف وهيب

المقدمة

سهم منطلق اتجاهي، ليغُرز في قلبي.

صرخت، بكيت، لم أستطع التحمل..! أعتقد أنها نهايتي، مع جرح غائر يفتك بي، وسُم ينتشر في عروقي ببطيء؛ ليذيقني العذاب.

ما بي أهذي وأنطق بما لا أريده؟!

من أين أتت هذه الفتاة؟ أقسم أنها ليست أنا.

فقط قشة تحول دون وقوع الكارثة، أين الترياق؟!

لا مفر.. لقد وقعت الكارثة!

الفصل الأول

(إن كان هلاكي سيجعلك تتخطين مِحنتكِ، فأنا مُرحب به)

في قرية صغيرة بُنيت بجانب جداول المياه، تفوح من البيوت رائحة الصنوبر وخشب البلوط، تتزين المنازل والأكواخ بزينة الشتاء، من مصابيح ملونة وشرائط بهية المنظر، كأميرة تتزين بالحُلي ليلة زفافها، يركض الصغار بِحُريَّة في شوارع القرية الضيقة، بينما أبواب الدور مفتوحة.. وفي كل دار تطهي الأمهات الكثير من الطعام للاحتفال بالذكرى الأهم، وتأتي مهمة الرجال؛ توزيع الطعام على الجميع.

وفي أحد المنازل الصغيرة تقبع السيدة العجوز الوحيدة ككل عام، لا يزورها أحد ولا تزور هي أحدًا، ولكن هذا العام مختلف فيبدو أن هناك من أتى ليؤنس وحدتها أخيرًا.

وقفت ضيفة المنزل صارخة متفاجئة بما سمعته:

_لا أصدق.. ثلاثون عامًا وأنتِ هنا بمفردك؟

فأجابتها العجوز وهي جالسة على كرسي زوجها المتهالك فمنذ موته وهي تحب الجلوس مكانه:

_نعم منذ أن مات زوجي وأنا أقبع هنا بمفردي، لم يكن لي أبناء فقد قتل شابًا ولا أتذكر مَن هم أقاربي.

كنت في منزلي كالعادة أنتظره ليعود بعد أيام العمل الطويلة، طرق باب المنزل، توجهت فرحة لاستقباله، وفوجئت ببعض الرجال يحملون جثمانه فوق أكتافهم.

ذمت المدعوة إيلينا كما أخبرت السيدة شفتيها وأردفت بثقل:

_أنا آسفة لتذكيرك بما حدث.

العجوز:

_لا عليكِ أيتها الشابة، لقد مَر وقت طويل على أي حال،

لكن لم تقولي لي إلى الآن، كيف لفتاة جميلة مثلك تنام في العراء بهذه الحالة الرثة وفي برد الشتاء؟!

توترت إيلينا وجالت بعينيها بعيدًا، فهي أيضا لا تعلم كيف آل الحال بها إلى هنا!

لا تعلم أين هي وما هذه المملكة الغريبة، كل ما تذكره أنها استيقظت في العراء وأمامها هذه السيدة الطيبة التي أشفقت عليها، وأخذتها معها لمنزلها.

قطع حبل أفكارها همهمة السيدة لها فنطقت بحرج:

_لا أعلم ماذا أخبركِ.

ابتسمت العجوز لها بعطف فهي حنونة للغاية، ثم ربتت على يديها، تعتقد العجوز ذات الشعر الأبيض، والبِنية الضعيفة أن تلك الفتاة

الصهباء ربما هربت من مملكة أخرى؛ خوفًا من أهلها أو شيءٍ من هذا القبيل لذا لم ترد إحراجها.

_لا يهم الآن، يمكنكِ المكوث هنا كما شئتِ، فأنا أعيش وحيدة كما ترين.

_شكرًا لكِ كثيرًا سيدتي، بما أنني هنا هل يمكنكِ التحدث عن المملكة أكثر؟ انتابني الفضول حول تاريخ هذه البلاد.

تنهدت العجوز وأغمضت عينيها تتذكر كل ما مرت به، ثم خطت مقتربة لنافذة المنزل، تنظر لقريتها البسيطة وفي زُرقة عينيها محيط من الحزن، لم يستطع الزمن محوه، بل بمرور الوقت يزداد عمقًا ويزداد ألمًا، التفتت لإيلينا وحاولت رسم ابتسامة واهنة ونبست:

_بالتأكيد، كانت مملكة سيران قديمًا أعظم مملكة في التاريخ، الفُضلى في كل شيء، كريمة تهب خيراتها لكل من يطأ أرضها، مما ولد العشق

في نفوس شعبها لها، والمهاجرين إليها، وولد أيضًا الطمع في نفوس أعدائها، حروب شُنت لتفتك بنا، وبنى الخونة والأعداء سعادتهم على أنقاض بيوت الشعب التي هُدمت فوق جثث أحبائهم، والآن بعد انتهاء الحرب، ظلت المملكة مُدمرة من الداخل، وملكنا الحالي لم يعد يهتم براعيته كسابق أجداده، كل ما يهمه الآن السلطة المطلقة؛ بناء القصور وحياة الرفاهية وأعوانه مثله.. فعمَّ الخراب والفساد في مملكة الأحلام.

_متى تولى هذا الملك العرش؟

ردت العجوز بضيق واضح على محياها:

_منذ وفاة الإمبراطور الأعظم فجأة، فبعده بدأ عصر الخراب، وزوجي كان من ضمن حراس الإمبراطور الجدد.

أتعلمين؟ طوال هذا الوقت كنت أشعر أن ثمة شيئًا ما لا أعرفه، شيءٍ غير طبيعي حدث وأن قتل زوجي مزامنةً مع موت الإمبراطور المفاجئ لم يكن بمحض الصدفة ولم يكن أثر قتال عنيف كما قالوا لي، لكنني لم أستطع معرفة حقيقة الأمر.

اتسعت أعين إيلينا بدهشة وقالت هامسة:

_وأين تكمن الحقيقة إذًا؟

_ القصر الملكي.. جميع أسرار المملكة يعرفها فقط مَن بالقصر.

انتهى حديثهم بعد الكثير من الثرثرة، ثم أرشدتها السيدة لغرفة صغيرة لا بأس بها، فستمكث هنا الأيام القادمة، استرخت إيلينا على فراش الغرفة، تنهدت طويلًا ونظرت لنافذة الغرفة القريبة منها، شردت قليلًا من الوقت، وحلق عقلها في سماء التساؤلات جاهدًا لإيجاد تفسير لمَ يحدث معها، هي ليست من هنا! ولا تمت لهذه البلاد

بِصِلة، الأمر أشبه بكابوس مخيف تتمنى أن تستيقظ منه قريبًا، لكن لسوء حظها أنه واقع ملموس تعيشه، وستتوغل به جاهلة لمَ سيحدث فيما بعد! فاقت من شرودها وأخذت تلمس قلادةٍ مَا كانت بحوزتها، وهي آخر ما وجدته، قلادة تشبه القمر، جلست تحدق بها عن كثب لعلها تجد بها الحل لهذه الكارثة، مرت دقيقتان وهي شاردة بها فسئمت من التحدي ووضعتها جانبًا، أسندت رأسها على الوسادة وأغمضت عينيها لتستريح قليلًا، ولكن هيهات أن تأتي الراحة!.. فجأة شعرت بألم يجتاح جسدها كله، وخاصةً ذراعها الأيمن، شعُرت وكأنه يتمزق، كأنه يوخز بسيف حاد ويحرقها، وبجانبها يخرج من القلادة ضوءًا يُشع بشكل غريب صرخت إيلينا عندما اشتد ألم ذراعها ولم تقوَ على التحمل، ضغطت عليه بيدها اليسرى.

رمز غريب ينجلي على ذراعها ببطء ومع كل ثانية يزداد الألم، إلى أن اكتمل الرمز واختفى الألم تدريجيًا، واختفى معه ضوء القلادة وُشمت

إيلينا بأرقام مجهولة وكانت (٢١٢) وبجانبهم رمزًا غريبًا يشبه الثعبان ارتعدت إيلينا، وبذهول نظرت لذراعها الأيمن ذي الوشم، وارتعشت أوصالها ما يحدث معها الآن عجيب يفوق قدرتها على الاستيعاب!

وفي ذات الوقت كانت السيدة ڤيوليت، في غرفة المعيشة حينما سمعت صراخ إيلينا، فهرعت لغرفتها واقتحمتها سريعًا دون أن تطرق.

التفتت إيلينا لها وأخفت ذراعها تحت الغطاء، اقتربت منها السيدة العجوز وبدا على محياها علامات القلق:

_إيلينا!

أيتها الصغيرة، هل أنتِ بخير؟

_نعم، نعم.. أنا بخير.

عبست ملامح السيدة واستنكرت ما تقول الصغيرة:

_إذًا لمَ صرختِ هكذا؟!

ارتبكت إيلينا وتلعثمت، وتعمدت عدم النظر لوجه العجوز لكي لا تكشفها عيناها:

_شعُرت بألم مفاجئ في عظامي، ربما من النوم في العراء لفترةً طويلة، لكني بخير الآن لا تقلقي.

استنكرت السيدة ما قالته الصغيرة لكنها تجاهلت الأمر:

_حسنًا ابنتي، إن احتجتِ شيئًا ناديني.

_بالطبع، شكرًا لكِ.

جلست إيلينا على حافة الفراش تضم ركبتيها، وتحيط قدميها بذراعيها، مشاعر كثيرة تجتاحها؛ القلق، الخوف، الألم والإرهاق،

أغمضت عينيها بوهن وأراحت رأسها على الوسادة، ستنعم براحة مؤقتة الآن.

***

قصر تلتهمه النيران، جدران تتأكل وتتساقط، على من هم بالداخل، خدم وحاشية في الطوابق السفلية للقصر يصرخون طالبين النجدة، ولكن مَا مِن مُلبي!

وفي الطابق العلوي يركُض رجال القصر، والحراس محاولين إنقاذ أرواح مَن بالقصر مِن نساء وأطفال، وفي إحدى أجنحة القصر الكبيرة، كان هناك طفل صغير، لا يتعدى عمره العشر سنوات يصرخ بخوف ودموعه تتساقط على وجنتيه، يجلس ضامًا جسده الصغير بذراعيه، على بلاط الجناح في المنتصف، والنيران تُحيطه من جميع الجهات تقترب منه بِخُبث كالأسد المستعد للانقضاض على فريسته عدا جهة الباب الموصد، وهناك مَن يحاول أن يكسره مِن الجهة الأخرى، شيئًا فشيئًا كُسِر ودخل والد الطفل لينقذه، احتضنه وحمله على كتفه وَهمَّ بالخروج بعيدًا عن النيران، ظن أنه نجا بطفله مِن الهلاك، لكن تبخرت ظنونه حين أحس بعمود يتهاوى فوقه، لم يكن

هناك متسع مِن الوقت للتفكير، ألقى بطفله بعيدًا على قدر المستطاع وسقط العمود على جسده؛ ليحطمه، صرخ الطفل مناديًا أبيه، وكاد أن يقترب حيث جثته المحطمة تحت العمود المحترق، لكن انتشله أحد الجنود سريعًا وركض به قبل أن تطوله النيران.

نهضت إيلينا مذعورة! التقطت أنفاسها المسلوبة مما رأته مِن بشاعة في هذا الحلم السيء، التفتت يمينًا ويسارًا تتأكد مِمَا حولها، سرعان ما تذكرت أين هي وتمتمت بصوتٍ منخفضٍ:

_كان مجرد كابوس.

نظرت لضوء الشمس الخافت الصادر من نافذة الغرفة، لقد اقترب الصباح ولا مجال للنوم ثانيًا.

هَمَت بالخروج مِن الغرفة لتجد السيدة ڤيوليت في غرفة المعيشة:

ـصباح الخير سيدتي.

ـصباح الخير صغيرتي، أنمتِ جيدًا؟

ترددت إيلينا للحظة، أتحكي لها عما رأت أم تصمت؟، وفضَّلت عدم البوح بما رأت؛ ظنًا منها أنه أمرًا تافهاً ولا يجب أن تثقل على السيدة العجوز أكثر مِن ذلك، فهمهمت لها وأضافت العجوز:

ـما رأيكِ بالذهاب إلى المدينة لمشاهدة الاحتفال؟

ـأي احتفال؟

ـإيلينا، ألا تعلمين حقًا؟!

إنه احتفال سيران الثانوي، احتفال النصر.

كل شعب سيران يعلم به، حتى الممالك المجاورة يعلمون به.

شردت إيلينا قليلًا وتذكرت حياتها السابقة، وكيف وصل بها الحال إلى هنا في مملكة لا تعلم عنها شيئًا.

لاحظت السيدة العجوز شرودها فتابعت توقظها:

ـلا يهم.. يمكنكِ المجيء وستتعرفين على المملكة أكثر.

ـ حسنًا.. سأذهب معكِ، متى سيحين إذًا؟

ـعِند غروب الشمس سنتحرك، مِن هنا لنصل إلى المدينة في الليل وقت بِدأ الاحتفال.

***

في أجواء احتفال صاخبة، كان شعب سيران على أهب استعداد لهذه الليلة العظيمة، زينة معلقة في كل الأركان؛ احتفالًا بالذكرى الثانوية لأمجاد سيران في الحرب.

رجال ونساء، من الأطفال إلى كبار السن، الجميع خرجوا للشوارع ليشهدوا ذكرى ذلك اليوم العظيم!

طبولًا تُقرع وآلات تُعزف وأشخاصًا يقفزون ويرقصون هنا وهناك غير أبهين بصقيع أول أيام كانون الثاني.

فكيف يمنعهم شيء عن إحياء ذكرى يوم التحرير؟

***

وفي وسط المدينة تسير إيلينا بجانبها السيدة فيوليت، تسير وعينيها مندهشة مما تراه، مِن احتفالات لأول مرة في حياتها، والسيدة ڤيوليت تنظر لتعابير وجهها المذهولة وتبتسم، هي لم ترَ شيئًا بعد!

ذهبوا لمنطقة مرور الموكب الملكي، اصطف كل من هناك على جانبي الطريق، ثم هدأ صخب الجميع.. ثانية.. ثانيتان، ثم اشتعلت النيران، وبدأ الرجال بقرع الطبول بتزامن وسرعة فائقة محدثين صوتًا جهورًا بمشهد بديع لم تره إيلينا من قبل!

وقبل مرور الموكب لاحظت إيلينا مجموعة مِن الفتيات معًا يرتدن نفس الملابس، وكانوا منطلقين كَمَن تحرر مِن سجنه للتو، تعجبت إيلينا مِن هذا المشهد لذا مَالت على أُذن السيدة تسألها:

ـمَن هؤلاء الفتيات؟ لمَ يبدوا كسجينات تم تحريرهن توًا؟

ـإنهن العاملات بالقصر، هذا اليوم مِن ضمن الأيام القليلة المسموح بها الخروج من القصر، لذا هن يبدِن كَمَن تحرر من الأسر.

ـولمَ لا يمكنهن الخروج وقتما يحلو لهن؟

ـمَن يدخل القصر ويعمل به، يُكشف له الكثير، لذا الملك يبقي عليهن بالداخل؛ خشية أن تفضح أسراره.

صمتت إيلينا قليلًا تفكر بما قالته السيدة فيوليت، هي من البداية لديها فضول لمعرفة ما بالقصر، منذ أن جاءت إلى هنا وحدث ما حدث، فلمَ لا تدخل القصر، ليس لديها شيء لتخسره.

ـكيف يمكنني الدخول للقصر للعمل به؟

صُدمت السيدة فيوليت مما تقوله إيلينا وأردفت:

ـلمَ تودي العمل في القصر؟!

_لكي أعيش، لن أبقى هكذا.

_يمكنك العمل في أي مكانٍ آخر، فلمَ القصر؟

_ سيمكنني المكوث هناك وسيوفرون لي ملبسًا، طعامًا، وفراشًا للنوم.

قطبت السيدة فيوليت حاجبيها ولم تقتنع بما تقوله إيلينا لكنها جارتها في الحديث:

_العمل في القصر مُهين، لذا لا يرغب الكثير في العمل به وهُم بالفعل يحتاجون أكبر عدد مِن الحاشية فلن يرفضوا أي شخص يريد العمل إن تأكدوا مِن خلوه مِن الشبهات، فقط اذهبي وسيختبرونكِ، لكن.. لا أنصحك بذلك، ليس باستطاعتك العيش هناك، أنتِ أرق من هذا الشقاء.

ـ يمكنني التحمل، لست ضعيفة لهذه الدرجة.

تنهدت السيدة فيوليت وأومأت لها وعادوا ليكملا متابعة الاحتفال ورؤية الموكب الملكي.

***

مر أسبوع منذ يوم الاحتفال وحدث بهم الكثير..

تعرفت إيلينا على مملكة سيران أكثر، في الصباح كانت تساعد العجوز التي تأويها، وفي الليل كانت تتجول في شوارع القرية وتتعرف على أهلها، على الرغم مِن أنها تمتلك شخصية منغلقة، إلا أنها يمكنها التأقلم مع أي وضع كان، ولتتأقلم هنا يلزمها التعرف على أهل المدينة.

وأيضًا كانت تقضي الأسبوع في تحضير أغراضًا لها لتذهب للقصر.

أعطتها العجوز كتاب قوانين المملكة والقصر، لتكون مُلمة بكل شيء كي لا تقع في المشاكل.

وفى صباح اليوم الأول مِن الأسبوع الثاني مِن كانون الثاني، كانت إيلينا قد خرجت بالفعل، من منزل السيدة ڤيوليت، لتبدأ رحلة العمل في القصر الملكي.

كان الطريق للقصر طويلًا نوعًا ما، التقطت أنفاسها ووقفت أمام بوابة القصر الضخمة والسور تنظر لها باندهاش، لم ترَ مثل هذا من قبل.

حركت قدميها بثقل نحو حراس القصر لتعلمهم بسبب مجيئها لهنا، ولم يكن أمر الدخول سهلًا، حيث ولجت للقصر بصعوبة بعد تأكد الحراس أنها مجرد فتاة عادية تود العمل، وليست جاسوسة من الممالك المجاورة أو ما شابه.

دلفت للداخل تتطلع حولها، تُبصر حديقة القصر الأمامية ومساحة القصر الضخمة، كأنه مدينة صغيرة من الممكن أن تتوه بها.

وكم أبهرها تصميم القصر وفخامته، قصرُ مُزين بأحجار كريمة وذهب خالص، بحيرات صغيرة حولها، والكثير والكثير من الشجر

المزين، والأزهار الملونة، كل ركنٍ به يوحي بالترف ورفاهية المعيشة لمن بالقصر.

اصطحبها عامل مِن هناك؛ ليدلها على مكان سيدة البلاط لتشرع بعملها، قابلتها سريعًا ومر كل شيء على ما يرام، فقد اتضح أنها سيدة طيبة لا متسلطة.

لقد استلمت الملابس المخصصة للحاشية وأُرشِدت لغرفة الفتيات التي ستمكث بها، وهناك تعرفت على بعض العاملات الأخريات، ورغم توددهم لها، إلا وأنها لم تعطيهم المساحة الكافية للتقرب منها.

توالت أيامها بهدوء وإيلينا الفضولية تحاول ملاحظة أي شيء غريب يحدث بالقصر وكثيرًا ما تتجول في القصر لتتعرف على كل شيء به.

وفي وقت الراحة للخدم كانت إيلينا تتجول مع خادمة تعمل هنا منذ زمن لتريها جميع الأماكن بالقصر، كانوا يتجولون في ساحة القصر

وذهبوا منها للطوابق السفلية المليئة بالممرات، لفت نظر إيلينا غرفة بابها مُهترئ للغاية وموصد في آخر الممر، حركها فضولها لتذهب له، وتكتشف ما بالداخل وكادت بالفعل أن تفتحه لولا الخادمة التي أمسكت يدها قائلة بحدة:

_لا يمكنكِ فتح هذا الباب.

_لماذا؟

_ هذه كانت غرفة الإمبراطور الأعظم بها أشيائه ولا يمكن لأحد الولوج لها.

_لقد مات الإمبراطور، إذًا لمَ ما زلتم تحتفظون بأشيائه بهذه الغرف، ما الذي يوجد بالداخل؟

ـيقولون أنها تحوي كتبًا كثيرة كان يقرأها الإمبراطور، وتحوي الكثير من أوراق الخطط القديمة للحرب وما شابه.

وما الضرر في رؤية هذه الأشياء؟

ـ الضرر ليس بهم، إنما فيما حدث داخل هذه الغرفة! يبدو أنكِ لا تعلمين سأخبركِ، يقال أنهم وجدوا الإمبراطور مقتولًا بها، وأن جثته كانت ملقاة بجانب الحائط والخنجر الذي قُتل به بجانبه، وعلى الحائط وجدوا دماءً لزجة لم تجف بعد، أخرج الحراس الجثة من الغرفة وأوصدوا الباب وعندما دلفوا لها مجددًا كانت الدماء قد اختفت ولا أثر للخنجر بالغرفة!

كانت إيلينا تستمع لمَ تقول الفتاة بقلب يخفق بسرعة وعقل مسلوب، حتى وصلت لجزء الخنجر والدماء فارتجفت ونطقت بصوت مهزوز:

_كيف حدث هذا؟!

_لا أحد يعلم، البعض يقول أن أحدًا دخل سريعًا وأزال آثار الدماء وأخذ الخنجر والبعض يقول أن هذا سحر المملكة!

***

انتهت الاستراحة وذهبت إيلينا لتكمل عملها، كان عليها في هذا اليوم أن تذهب لتنظيف الجناح الملكي للأميرة الحسناء؛ أميرة المملكة الأولى ميرال ذات الشعر البني اللامع والبشرة الحنطية والبِنية الصغيرة، سارت في الممر المؤدي لهناك، في الطابق الثاني مِن القصر.

تسمرت إيلينا حينما رأت الأميرة ميرال ببنيتها الضعيفة، ووجهها الذي يشبه وجه الأطفال ببراءته، محاصرة بالقرب من باب جناحها، والذي يحاصرها رجل ضخم يبدو في آواخر الستينات بأعين واسعة،

ومخيفة وبدلة رفيعة، تدل على علو شأنه في المملكة يحدق بها بحدة، ممسك بذراعها ويصرخ بها بحديث وصل لمسامع إيلينا:

ـ لن تفلتي من تحت يدي، لا تظني نفسكِ قادرة على الهرب بما لديكِ.

كانت إيلينا ستذهب بدون أن تتدخل؛ كي لا تدخل نفسها في المصائب، لكن ساقتها قدميها لهم، وبفضل بعض فنون القتال التي تعلمتها في بلدتها، استطاعت نزع يده بسرعة وأبعدته عن محيط وقوف الأميرة، احتدت عينا الرجل أكثر وصرخ بها:

ـ كيف تجرئين؟!

ارتعشت بخوف وتبخرت شجاعتها التي حصلت عليها للتو.

وفي ثوانٍ اقترب منها وكاد أن يتطاول عليها، ولكن أنقذت الأميرة الموقف فأمسكت يدها، وجرتها لتخبئها خلف ظهرها، وقالت بوجهه:

_اذهب وإلا سأصرخ بصوتٍ عالٍ وأخبر أخي!

نظر لهن مطولًا وابتسم بسخرية ثم قال:

_ حسنًا، لنا لقاء آخر أميرتي.

وهمَ بالذهاب بعيدًا، ابتعدت إيلينا عن الأميرة وهي تنظر في عينيها خائفة، بينما سألتها الأميرة:

_هل أنتِ بخير؟

أومأت إيلينا بضعف فاسترسلت الأميرة الحديث:

_ كم أنتِ شجاعة يا فتاة.. ما اسمكِ؟

_اسمي إيلينا، آنستي.

_حسنًا إيلينا أكملي عملك وانسي تمامًا ما حدث ولا تثرثري به.

احتدت نبرة الأميرة في النهاية لذا همهمت إيلينا، وانحنت لها لتدخل الجناح وتنظفه.

حل المساء وانتهت إيلينا من أشغالها وذهبت لغرفتها مع باقي الفتيات لتستريح، وفي طريقها رأت ذلك الرجل الذي كان يهدد الأميرة، التقت عيناه بعينيها، فنظر لها بِغلٍّ وكُرهٍ، اقترب لها وهمس بخبثٍ:

_أرجو أن تظلي محتفظة بشجاعتكِ وقوتكِ هذه، فسوف تحتاجينها فيما بعد.

وفي نهاية حديثه انقلبت ملامحه ونبرته من الساخرة لأخرى مخيفة دبت الرعب بقلبها، وقبل أن تجيبه كان قد اختفى مِن أمامها.

ظلت إيلينا واقفة لبُرهة، تحاول استيعاب ما أقحمت ذاتها به، لم يمر شهر وهي بالقصر وها هي قد افتعلت المصائب!

تنهدت بصوتٍ مسموع وأكملت طريقها للغرفة.

***

في اليوم التالي استيقظ جميع العاملات باكرًا وكانت من بينهم إيلينا، وكان اليوم خاصًا؛ لأن اليوم سيُعدون وليمة للعائلة الملكية وكبار الأعيان بالمملكة للغذاء.

أعددن طاولة كبيرة في حديقة القصر، تحوي الكثير من الأطباق، أشهى الأطعمة، وألذ المشروبات موضوعة، صورة جديدة من صور ترف المملكة والملك، بينما خارج القصر يُذل فقراء الشعب من أجل القليل من الطعام.

جلست العائلة الملكية المتكونة من الملك، وزوجته، والأميرة ميرال، والأمير الشاب ذو الملامح الباردة والوجه الحاد والبنية القتالية أرثر، وأيضًا بعض الرجال المهمين والوزراء، وكان يجلس بينهم الوزير ريان، نظرت له إيلينا وارتعبت وأخفضت نظرها في الأرض، فهي

منذ حادثة الأميرة وهي تخشاه، وأثناء تناولهم للطعام تحدث الملك موجهًا حديثه لابنه أرثر:

_كيف حال الجيش أيها الأمير؟

رد عليه الأمير برسميَّة ليس وكأنه والده، فعلاقتهم من البداية تقتصر على التدريبات وتعلُم شؤون البلاد والحرب وأخبار قيادته للجيش:

_الجيش في أحسن حالاته جلالة الملك، وعلى أتم استعداد لأي غارات خارجية.

_جيد، وكيف حال دروسِك، أميرة ميرال؟

_على ما يرام، والدي.

وهنا رنَّ صوت حاد لارتطام الملعقة بالطاولة وهسهست الملكة:

_تناديه جلالتك، ميرال!

ارتعشت أوصال الأميرة وحاولت كبح دموعها مِن الهطول مما تشعر به من إحراج أمام بقية الجالسين على الطاولة والخادمات الواقفات وقالت بصوتٍ مهزوز:

_آسفة جلالة الملكة، آسفة جلالة الملك.

رَبت الأمير أرثر على كتفها، بينما صمت الملك دون أن يعلق، وابتسم ريان بخبث، نظرت إيلينا لها بأسف، واستنكرت قسوة الملكة وعدم مبالاة الملك.

انتهى الغذاء وقبل أن ينهضوا من على الطاولة تحدثت ميرال:

_جلالة الملك أريد من إيلينا أن تكون وصيفتي.

صُدِمت إيلينا وحدقت للأميرة حتى استفهم الملك:

_مَن إيلينا؟

أشارت الأميرة لإيلينا فنظر الكل لها وقال الملك:

_حسنًا مِن اليوم ستكون وصيفتك.

تعجبت إيلينا مما حدث، في لحظة انقلبت من عاملة عادية لوصيفة الأميرة!

نهض الجميع ونادت ميرال على إيلينا وذهبت بها لجناحها وبدأت الحديث:

_ انصتي، لقد عينتكِ وصيفتي لأني رأيت بكِ شجاعة أعجبتني، والسبب الأهم مِن ذلك أن الوزير ريان لن يتركِ وشأنكِ منذ تصديكِ له، لذا وَجب عليَّ حمايتكِ، ويجب عليكِ البقاء بقربي والإخلاص لي.

صمتت إيلينا قليلًا ثم انحنت للأميرة:

_ أنا في خدمتكِ، مولاتي.

***

أمسكت الأميرة ميرال ريشة مُغطاه بالحبر وورقة ودونت بها:

"لقد أتى شهر شباط، ولقد مرت سنتين بالفعل!

شكرًا لك على ما فات، وكم كنت أود وجودك فيما هو آتٍ"

ثم طوت الورقة ووضعتها بصندوق ذكرياتها كما تسميه والتقطت منه رسالة وفتحتها لتقرأها للمرة التي لا تُحصى:

"لقد أتى شهر شباط، أميرتي ميرال...

أكتب لكِ وأنا أعلم أنه لا مفر لي من موتي القريب، منذ البداية وأنا أعلم أن مصيري المحتوم هو الهلاك، لكن..، إن كان هلاكي

سيجعلكِ تتخطين محِنتكِ فأنا مُرحبٌ به، فجلالته قَسى عليكِ كثيرًا بسببي، وأنا لم أعد أتحمل رؤيتك تتعذبين مِن أجلي، أردت أن أكون سبب سعادتك لكنني فقط جعلتكِ تذرفين الدموع، لذا أرجوكِ، كوني بخير بعد رحيلي، أتمنى من كل قلبي أن تعيشي حياتك بسعادة بدوني، ولكن لا تنسيني، تذكريني كنجمة كانت مشعة في حياتك يومًا، وفي ليلة هادئة انظري للسماء المتلألئة، وتذكري حينما كنا نجلس تحت ضوء القمر، ومع الوقت سيختفي حزنكِ وستبتسمين تلك الابتسامة المشرقة من جديد.

چاك"

عادت ميرال تطوي الرسالة وهي تتمتم بحزن:

ـلم تكن تعلم أن ابتسامتي المشرقة لن تعود، وأن كل شيء ألمسه يُصاب بالحزن!

لم يكن حبًا عاديًا، جاك!

كان الأمر يعني لي أكثر مِن مجرد وقت مضيناه سويًا، أكثر مما أستطيع تخطيه!

وضعت الرسالة بالصندوق، ثم طُرق الباب، وسمعت صوت إيلينا تستأذن للدخول، استعادت الأميرة رباطة جأشها وأذنت لها فدلفت إيلينا وهي تنحني لها:

_صباح الخير، أميرتي...

_إيلينا.. ألم أخبركِ من قبل أن تكُفي عن الانحناء؟

ابتسمت إيلينا بهدوء فتابعت الأميرة الحديث مُشيرة بجانبها:

_تعالي، هيا اجلسي هنا.

اقتربت إيلينا وجلست على نفس الأريكة التي تجلس عليها الأميرة في جناحها، ورغم أن شيء كهذا غير مسموح به في القصر، إلا أن الأميرة تحاول قدر المستطاع إزالة هذه القواعد، التي لا داعي لها في نظرها بينهن.

نظرت ميرال لإيلينا وبدأت أحاديثهم الصباحية:

_لقد مر شهر منذ مجيئكِ وبقائكِ بجانبي ولقد مررنا بالكثير سويًا.

ابتسمت إيلينا وأومأت:

_هذا صحيح أميرتي، لقد مرَّت الأيام سريعًا.

_إيلينا، لديَّ فضول لأمرٍ ما يخصكِ.

_ما هو مولاتي؟

_ألاحظ أن بعض الخادمات يحاولن التقرب منكِ، لكنكِ تتجاهليهم، لمَ؟

_لا أحبذ كوني مقربة من الكثير.

_لماذا؟!

ألا تحبين امتلاك رفقة؟

_لا، أفضل الهدوء، والراحة في الوحدة.

_لكن جميعنا يحتاج لبعض العلاقات الدافئة، فالوحدة باردة كالشتاء.

_كل العلاقات عابرة، تغمرك بالدفء في البداية لتسلبه منك في أشد الأوقات برودة؛ لذا مهما ماطلت للاستمرار في علاقة ما سأجد نفسي في النهاية وحيدة.

تعجبت الأميرة من حديث إيلينا وسألتها باستنكار:

_وهل أنتِ سعيدة وأنتِ وحيدة؟

_ بالطبع لا، لست سعيدة، لكن على الأقل أشعر بارتياح كوني لن أتعرض للألم مجددًا.

عبست ملامح الأميرة حزنًا على هذه الشابة الصغيرة البائسة، فكيف لشخص أن يخذُل أحدًا اتخاذه قرار المضي وحيدًا!

الأميرة ميرال:

_لا أظن أن المشكلة في الرفقة، المشكلة تكمن في اختياراتكِ، لم تكوني قد نضجتِ بعد، لم تفكري جيدًا وأنتِ تختارين رفاقكِ، لا تُلقي باللوم على الأشخاص والعلاقات، فكما أن هناك أشخاص خائنين،

هناك آخرين مخلصين، وأيضًا.. لن تكوني وحيدة بعد الآن، أنا هنا وسأكون خير صديقة لكِ.

ابتسمت إيلينا بهدوء لها وشكرتها لحسن تعاملها معها، ثم انتقلوا في جلستهم بين الأحاديث عن أمور كثيرة، وفجأة قطع حديثهم صوت طرق الباب، تلاه صوت الحارس في الخارج يخبر الأميرة بأن الملك والملكة يطلبونها.

تركت الأميرة الجناح وتوجهت إلى حيث يجلس والديها في عرشهم وانحنت:

ـقيل لي أن جلالتكم طلبتموني.

أومأ الملك وقال:

ـ نريد إعلامك بقرار مهم.

ثم نظر لملكته لكي تتحدث:

_لقد قررنا خطبتكِ للأمير چايدن، ولي عهد أوكتراس.

تفاجأت الأميرة وعلا صوتها:

_ماذا؟!

الفصل الثاني

(أحيانًا ينطق العناق بمشاعر لا تستطيع الكلمات نطقها)

تفاجأت الأميرة وعلا صوتها:

_ماذا؟!

كيف تأخذون قرارًا كهذا دون أخذ رأيي حتى؟!

غضِب الملك وصرخ بها:

_ اخفضي صوتك وأنتِ تتحدثين معنا.

ارتجفت ميرال من صراخه في وجهها، نظرت لهم معاتبة بأعين لامعة، لم يهتم والدها الملك لها واسترسل الحديث:

_منذ متى ونحن نأخذ الآراء في الأوامر الملكية؟

هذا الزواج لمصلحتك ومصلحة المملكة، وغير مسموح بالاعتراض.

_لكنني لا أرغب بالزواج.

ردت عليها الملكة بسخط:

ـ من كنت تنتظرينه قد رحل دون رجعة، انظري لِمَ هو قادم، اذهبي الآن.

انحنت ميرال وأدارت وجهها سريعًا وهمت بالخروج، وهي مارة رأت المدعو "ريان" الذي نظر لها بتشفي كشيطان يجول يصنع شرًا وقال:

ـتبقى القليل من الوقت وستتزوجين وترحلين من هنا، وحينها لن يمنعني أحدًا من أخذ ما أريد.

تجهم وجه ميرال وهمست وهي تضع عينيها بعينيه بثبات:

ـمستحيل..

ضحك بصوتٍ عالٍ، ثم تغيرت ملامحه لأخرى مرعبة في لحظة:

_لا تتحديني يا صغيرة، وأيضًا.. ابعثي سلامي لوصيفتك.

_أيها الحقير ماذا تريد منها؟!

رفع كتفيه بلامبالاة وتركها وذهب، وهي هرعت إلى جناحها لتتفقد إيلينا، اقتحمته لتجد إيلينا هناك كما هي، اقتربت منها وسألتها متلهفة:

_أنتِ بخير؟

_نعم أنا بخير، ماذا حدث؟

تنفست ميرال الصعداء وجلست على الأريكة تلتقط أنفاسها:

_يريدون تزويجي من الأمير چايدن؛ أمير مملكة أوكتراس

_ تزويجكِ!، الأمير مَن؟

_الأمير الأكبر جايدن ولي عهد مملكة أوكتراس ابن عمي.

ـ أوكتراس؟

ـما بك إيلينا!؟

إنها من ضمن الممالك الثلاث!

ـسامحيني أميرتي فأنا من منطقة بعيدة جدًا، ولم أنشأ ضمن الممالك الثلاث.

ذُهلت ميرال فهي لم تتوقع أن إيلينا ليست من هنا.. وأيضًا حتى الممالك المجاورة يعرفون الممالك الثلاث، إذًا من أين هي؟

ـ ألا تعلمين تاريخ البلاد التي تعيشين بها الآن؟

سيران، چوكتار، وأوكتراس، ثلاث ممالك كانوا متحدين قديمًا تحت اسم وحكم مملكة واحدة (سيران).

وبقى نظام الحكم هذا حتى وفاة الإمبراطور الأعظم.. جدي

ـلم أكن أعلم، لكني سمعت من قبل عن حادثة قتل الإمبراطور، هل تعلمين بحقيقة حادثة قتله الغريبة؟

ـ لا أحد يعلم الحقيقة كاملة، وكل ما أعلمه أن بعد انتهاء الحرب في شهر كانون الثاني، كانت المملكة في تشتت، وفي اليوم الثاني عشر من شهر شباط، وجدوه مقتولًا في غرفته، مات الإمبراطور الأعظم وترك وراءه الكثير من الأسرار التي لا يعلمها أحد!

حينما قالت ميرال تاريخ موت الإمبراطور، تبعثرت ملامح إيلينا، وارتبكت لتذكرها ما رُسم على الوشم خاصتها، إنه ذات التاريخ!

لاحظت الأميرة ارتباكها، لكنها تجاهلت ذلك وتابعت الحديث:

ـ حتى العائلة الملكية، أظن أنها لا تعلم شيئًا، ولم تتحرَ بالأمر.

ـولمَ ذلك؟

شحب وجه ميرال وقالت:

_لأن والدي ملك فاسد، وفَرِحَ لحصوله على الحكم.

أنهت الأميرة حديثها وساد الصمت لوقت ليس بقليل، إيلينا شردت لتحاول ربط ما يحدث معها بما تقوله ميرال، وميرال جلست تفكر في مصيرها الآتي، ثم قطعت إيلينا الصمت قائلة:

_إذًا أخبريني، هل تريدين الزواج من الأمير؟

_بالطبع لا!

لم أره في حياتي إلا وأنا صغيرة، لا أتذكر ملامحه حتى!

يقال عنه أنه قائد حربي قاسي لا يرهبه شيء، ولا يأبه بمشاعر الآخرين، سيسحقني ولن يرف له جفن حتى.

لن أستطيع تحمل طباعه!

_اهدأي أميرتي سنجد حلًا لذلك، لا تحزني.

اغرورقت عينا الأميرة بالدموع، هي كانت تحاول التماسك، لكن دموعها أبت الصمود، وسقطت رغمًا عنها، علا صوت شهقاتها وانتحبت قائلة:

_ لمَ؟ لمَ يحدث معي كل هذا؟، لم أشعر يومًا أني أميرة مرفهة، والدي قسى عليَّ كثيرًا، وأمي كل ما يهمها القواعد الملكية، لم أشعر أبدًا بحنانهم عليَّ!

نظرت إيلينا لها بأسف وعانقتها، فأفضل ما يمكن فعله للمواساة هو الاحتضان، فأحيانًا ينطق العناق بمشاعر لا تستطيع الكلمات نطقها.

ابتعدت عنها لتنظر في عينيها الباكية، ابتسمت لها لتطمئنها وقالت بهدوء:

ـصحيح أن جلالتهم قسوا عليكِ، لكن وجود عائلة أفضل بكثير من أن تكوني وحيدة.

لا أعتقد أنهم سيقفون مكتوفي الأيدي إن مسكِ أحدًا بسوءٍ، لذا ابتهجي وكوني راضية فعلى الأقل تملكين عائلة.

هدأت ميرال ثم بادرت إيلينا بالسؤال:

ـأليس لهذا الأمير رأي؟ ألا يستطيع الرفض؟

ـلا أظن أنه سيرفض أميرة مملكة سيران، أنا قوة له، بي سيستطيع السيطرة على المملكتين وإن رحل ملك مملكة چوكتار سيستطيع حكم الثلاث.

ـولِمَ كل هذا الطمع؟!

ـالجميع يصارع من أجل السلطة، والدي يظن أنه إذا زوجني له سيضمن بقاء أوكتراس تحت يديه.

ـتُفنى حياتهم من أجل السلطة!، كم أشفق عليهم وعليكِ!

***

انقضى الصباح سريعًا وأضاء القمر السماء ليعلن بداية ليل آخر، فتحت إيلينا الخزانة في غرفتها لتبحث عن شيءٍ ما، التقطت تلك القلادة، وقررت ارتدائها الليلة، فحديث ميرال حثها على البحث مجددًا وراء ما يحدث، راحت تتجول في باحة القصر وفي عَتَمَة الليل الحالك ازداد توهج القمر لتتوهج القلادة أيضًا معه، ولحسن الحظ كانت إيلينا بمفردها.

تجولت إيلينا قليلًا، ثم أتتها فكرة جنونية!

أن تذهب للطابق السفلي وتدلف لغرفة الإمبراطور.

وبالفعل، أخذت قنديلًا وذهبت لهناك، وبِحيلةٍ صغيرة استطاعت فتح الباب الموصد، تسللت إلى الغرفة بهدوء وهي تتلفت حولها قلقة من أن يراها شخص ما، أغلقت الباب ونظرت حولها.

غرفة مظلمة أقل ما يقال عنها أنها مكب قمامة، أتربة في كل ركن من الغرفة جعلت إيلينا تختنق، أشياء مبعثرة وحطام زجاج مكسور منثور على الأرض، جدران مليئة بالرسومات والخرائط الغريبة عليها.. بالإضافة إلى رموز كثيرة لا تفهم منها شيئًا، نظرت للجدران الأربعة ولمستهم ثم ركعت على ركبتيها لتبحث عن شيء يُشبِع فضولها، ولم تجد سوى ورقة تبدو وكأنها ممزقة من كتاب، التقطها فوجدت عليها ذلك الرمز مجددًا؛ رمز الثعبان، استقامت ونظرت للأمام فلمحت شيءٍ على الحائط، ارتعبت إيلينا وتقهقرت للخلف، عيناها وفمها مفتوحان لأقصى حد، لا تصدق ما تراه، منذ ثوان كان الحائط خالي من هذا الشيء!

اقتربت ونظرت له عن كثب.. فرأت رمز الثعبان ملطخ بالدم!

وأثار الدماء لزجة وكأنها حديثة!

تسمرت إيلينا لدقائق، ولم تقوَ على تحريك قدميها المرتعشة، ثم خطتّ ببطء مقتربة مجددًا للحائط، وكلما اقتربت زاد توهج القلادة حتى شعرت بها تحرقها، تلمست إيلينا الآثار اللزجة بيدٍ مرتعشة، ثم ابتعدت سريعًا لترتطم بشيء خلفها؛ خزانة موجودة استدارت لها لتجدها مفتوحة تحوي الكثير من الكتب المبعثرة، مجسمات غريبة، سيوف قديمة وأختام ملكية، تفقدتهم جميعًا بتوتر وألقت نظرة على الكتب، التقطتا عيناها كتاب مهترئ مختلف عن الباقين، لفت انتباها فسحبته من الخزانة، وجلست تتفحص صفحاته برفق، ومن بعض السطور التي قرأتها اتضح لها بعض الأحداث التي مرت على المملكة.

ظلت تقرأ ما به إلى أن توقفت عند سطر معين، جحظت عيناها بينما تعيد قرأته بصوت مرتفع:

"كل مَن يجد القلادة سيموت، لا يوجد شخص قادر على إبطال التعويذة ومنع ما سيحل من خراب".

تصلبت إيلينا من هول ما قرأت، ومخيلتها أخذت ترسم لها أسوأ النهايات، دقيقة.. دقيقتان حتى عادت لرشدها وقلبت الصفحة وقرأت ما بعدها:

"ستتشتت الممالك من بعدي، سيتصارع أبنائي على الحكم، ستنقسم المملكة، ولن تتوحد ثانية سوى بإبطال التعويذة".

ثم قلبت الصفحة مرة أخرى ورأت المُدون في التالية:

"(الثعبان) رمز الشر سيولد الخير.. فقط في يد من يؤتمن".

بعشوائية قلبت إيلينا الصفحات لتقرأ آخر صفحة في الكتاب بصوتٍ عالٍ:

_ما أسوأ أن تنتظر طعنك على يد أقرب الناس لك، بينما تدعي عدم المعرفة!

أتمنى فقط ألا ينهار كل شيء من بعدي.

أغلقت الكتاب بيد مرتعشة وأخذته معها، خرجت من الغرفة وأوصدت الباب كما كان.

ذهبت لغرفتها وخبئت الكتاب جيدًا، ثم استلقت عليه لتأخذ غفوة لاستيعاب ما يحدث لها.

فاقت بعدها وفكرت أن تذهب للأميرة لتحكي معها حتى تعرف أكثر عن المملكة.

وفي طريقها إلى الجناح، لمحت طيف أحد ما وشعرت بحركة غير عادية خلفها، استدارت لتجد شخصًا مُلثمًا، يحمل في يده خنجر

ويشهره في وجهها، سار نحوها وكلما يقترب خطوة تعود هي للخلف خطوة، حاولت الركض والهرب، ولكنه كان أسرع منها، حاصرها بالقرب من الحائط وغرز السكين بها، أطلقت إيلينا صرخة مدوية وانزلقت قدماها على الأرض، هرب الملثم بعيدًا، وتركها غارقة في دمائها، وفي مكان آخر انتفض الحراس عند سماع صوت الصراخ المتألم، ذهبوا إلى الاتجاه الذي سمعوا منه الصوت فوجدوا وصيفة الأميرة واقعة أرضًا بين الدماء، حملها أحدهم واتجه بها لجناح الأميرة.

***

كانت الأميرة جالسة في جناحها حينما طُرق الباب بعنف وسمعت صوت جلبة من الخارج، نهضت سريعًا وفتحت الباب لترى شخصًا يحمل جسد إيلينا الملطخ بالدماء:

_ مولاتي! وصيفتك.

شهقة خرجت من فم الأميرة وبيد مرتعشة أشارت للفراش ليضعها به.

دلف الحارس للداخل ووضعها به.

_ماذا حدث لها ؟

_سمعنا صوت صراخ لفتاة آتٍ من بعيد ذهبنا حيث الصوت فوجدناها غارقة في دمائها.

كظمت الأميرة غيظها.. فهي تعرف مَن خلف هذه الفعلة المشينة، لكن ليس هذا الوقت المناسب للغضب، أمرت الحارس بإحضار الطبيب الملكي للجناح وهي لازمت إيلينا بجانب الفراش، القلق ينهش قلبها، ودموعها تشق طريقها لوجنتيها، يبدو أن تلك الفتاة احتلت مكانة عظيمة في قلب أميرة البلاد.

أتى الطبيب سريعًا وضمد جرحها، كان الوضع مأسويًا، وأخبرها أيضًا أنها ستستغرق أيامًا حتى تفيق.

***

سرعان ما مرت الأيام، ومر أسبوع كامل قضته الأميرة في مراعاة وصيفتها والاهتمام بها.

اطمأنت عليها وتأكدت من أن الخادمات قد غيروا الضمادات لها، ثم خرجت لتستنشق بعض الهواء في حديقة القصر.

كانت شاردة تتأمل القمر بينما الرياح تداعب وجهها وشعرها الطويل حتى قاطع تأملها صوت ساخر تعلم صاحبه جيدًا:

_كيف حال وصيفتك مولاتي؟

_ريان!

أنت خلف كل هذا، صحيح؟!

ابتسامة ساخرة ظهرت على وجهه وأردف باستفزاز:

_كنت فقط ألقنها درسًا، لكي تتعلم كيف تتعامل مع أسيادها.

ـأيها الوغد!

لم يأبه لصراخ الأميرة وأضاف ببرود:

ـوأيضًا.. كان هذا ضريبة رفضكِ لمَ طلبته.

ـأيها الحقير كفى!، ماذا تريد بعد؟!

ـأنتِ تعلمين بالفعل ما أريده.

ـ على جثتي أيها الفاسد، لن أدعكَ تحصل عليها!

ـسنرى إذًا...

أنهى كلامه وهو يبتعد عنها، بعد أن تركها تتخبط من الغضب.

***

في الجناح وبعد القليل من الوقت بدأت إيلينا تحريك يدها، وببطء شديد فتحت عينيها لتقابل السقف، أنَّت من الألم الذي داهمها في الحال، حدقت حولها، ولم يستغرق الأمر ثوانٍ حتى تذكرت ما حدث، رفعت جسدها قليلًا وفي هذه اللحظة، فُتح باب الجناح وظهرت من خلفه ميرال التي اقتربت لإيلينا بلهفة:

_إيلينا.. فُوقتِ أخيرًا!

عانقتها الأميرة برفق كي لا تؤذيها وأضافت:

_لقد قلقتِ عليكِ كثيرًا، أنا آسفة إيلينا.

رُسمت ملامح التعجب على وجه إيلينا من تأسف ميرال لها، ولكنها صمتت غير قادرة على الحديث.

_لا أصدق أنكِ نجوتِ، أعدكِ أن أهتم بكِ حتى تستعدين عافيتكِ مجددًا.

استعادت إيلينا عافيتها بعد فترة قليلة.. وحينها قررت ميرال الإفصاح لها عن سرها وإخبار صديقتها بكل شيء.

كانتا جالستان في حديقة القصر الهادئة حين بدأت الأميرة الحديث:

_انتظرت أن تستعيدي عافيتك؛ كي أطلعكِ على شيء هام.

_ما هو؟

تنهدت الأميرة وقالت بعد صمتٍ قصير:

_ألم تتساءلي من قبل لِمَ كان يهددني الوزير؟

_كان لديَّ الفضول لأعرف، لكن ليس لديَّ الحق لأسأل، فأنا مجرد وصيفة.

_أنتِ لست مجرد وصيفة.. أنتِ صديقتي.

ابتسمت إيلينا بامتنان فتابعت الأميرة الحديث:

_منذ خمس سنوات قابلت الجنرال چاك صدفةً حينما أتى للقصر لمناقشة بعض المهام مع والدي وأخي، ومن بعدها كثرت أوقات اللقاء، تعارفنا وأحببنا بعضنا، وكان أخي أول من يعلم بذلك، ولكن حينما أخبرت أبي وأمي نهروني، لأنه ليس أميرًا، والأميرة يجب أن تتزوج بأمير، حاولوا إبعادي عنه ولكني أبيت البعد، عاقبني أبي وحبسني في جناحي، ولكي يتخلص والدي منه، جعله يتولى القيادة على كتائب الدفاع لحدود المملكة، التي تصد الغارات والهجمات الخارجية دومًا، وقُتل چاك دون أن يتلقى كلمة ثناء واحدة!

أنهت ميرال حديثها بصوت خافت والدموع تتجمع في عينيها،

ربتت إيلينا على كتفها وأردفت بهدوء:

_أنا آسفة لمَ حدث.

_لا عليكِ.

تساءلت إيلينا بتعجب:

_لكن ما دخل هذا بالوزير ريان؟

_هو من دفع والدي لفعل ذلك، لكي يتخلص من چاك ويأخذ ما لديه.

_لا أفهم شيئًا!

_سأشرح لكِ...

قديمًا بعد انتهاء الحرب وموت الإمبراطور الأعظم، نشب حريق عظيم في قصر قريب يقع على بُعد أميال قليلة من هنا، كان هذا القصر

مِلك لوالد چاك، الذي كان من أعوان الإمبراطور، مات والده في هذا الحادث بينما ينقذ چاك من الحريق، هوى عليه عمود وتحطم جسده.

صعقت إيلينا مما قالته ميرال، وفورًا عاد لذاكرتها الكابوس الذي رأته سابقًا، وكم يبدو مشابهًا لمَ تقوله ميرال.

لم تعلق إيلينا بحرف لهول ما سمعته، الدهشة والتعجب واضحة على محياها مما جعل الأميرة تتساءل:

_ماذا بكِ؟!

_لا شيء، أكملي...

_والد چاك كان يحتفظ بأوراق سرية تخص المملكة، ومن بعده چاك هو الوحيد الذي كان يعلم بمكانها، وهو بدوره أخبرني بهذا المكان في إحدى رسائله قبل موته، قال لي أنها مخبأة في القصر في مكان لم تصله

النيران، كان ريان يعلم أن جاك سيخبرني عن مكانها بالتأكيد؛ لذا حين فشل في أخذها منه تخلص منه وبدأ بتهديدي بكل الطرق، هو يريدها وبأي ثمن لا أعلم لمَ!، لكني رفضت أن أسلمها له، فأعطاني تحذيرًا آخر بما فعله لكِ.

_ماذا تقصدين؟!

_هذا الحقير هو المسؤول عما حدث لكِ، أرسل أحد أتباعه ليطعنكِ، أنا آسفة كل ما حدث لكِ كان بسببي.

أخفضت الأميرة رأسها بحرج، ورغم كونها أميرة للبلاد هي لا تشعر بالإهانة حينما تتأسف لشخص ما، خاصةً لصديقتها التي تسببت بأذيتها.

لم تقبل إيلينا رؤية صديقتها هكذا لذا عانقتها قائلة:

_لا تتأسفي مولاتي، هذا ليس خطئكِ.

ابتعدت ميرال عنها ترسم ابتسامة ضئيلة، والآن هي تشعر براحة كبيرة بعد حديثها مع صديقتها، فكم تهون الهموم عندما يحملها الأصدقاء معًا، وكم تسهل الألآم عندما يشاركوها سويًا!

***

بعد أيام قليلة استطاعت فيهم إيلينا التقصي عن مكان القصر المحترق، قررت الذهاب له خفية، لعلها تجد ما ينقذها في هذا القصر، بما أنها تخص المملكة فإذن يجب عليها الاطلاع عليها، هي تعلم أنها تخون ثقة أميرتها هكذا، ولكنها عنيدة ومتهورة ولن تقف مكتوفة الأيدي تنتظر موتها، فحتى لو كان موتها آتٍ عن قريب، ستموت وهي تحاول النجاة.

وفي ليلة هادئة كانت إيلينا قد حَضَّرت ما تحتاجه للذهاب، أخذت معها بعض الأغراض التي قد تحتاجها وكتاب الإمبراطور وتبقى لها أن تأخذ إذن الخروج ولن يساعدها في هذا الأمر سوى الأميرة ميرال، توجهت إلى جناح الأميرة، استأذنت الدخول ثم انحنت لها وأردفت:

_عذرًا أميرتي، كنتُ أود أن أطلب منكِ شيئًا...

_ماذا تريدين إيلينا؟ اطلبي أي شيء.

ـكنتُ أود الخروج من القصر صباح الغد لزيارة جدتي.

ـلكن كما تعلمين الخروج من القصر في أيام العمل ممنوع.

ـأعلم مولاتي، لكن هي متعبة وأردتُ الاطمئنان عليها لن أتأخر، أرجوكِ.

تنهدت الأميرة باستسلام وقالت:

ـحسنًا، لكن عودي سريعًا، سأخرجكِ من البوابة الخلفية للقصر.

انحنت لها إيلينا شاكرة وخرجت، وفي فجر اليوم التالي كانت إيلينا قد رحلت مِن القصر الملكي ذاهبة إلى الآخر المحترق، وبعد طريق ليس بالسهل، وصلت إيلينا للقصر القديم أو بالأحرى حُطام القصر، قصر كبير قديم يحيطه الكثير من الأشجار من كل جانب، سوره مفتوح مما أثار الشك في خلدها، مكان خالي من أي حركة لذا

تيسر دخولها لهناك، سارت للداخل بحذر وهي تتلفت حولها، كان مكانًا خاويًا ومخيفًا يملئه الأتربة، كانت جدران القصر من الداخل على وشك الانهيار، وبلاط القصر مُغطى بِحُطام الأعمدة والأبواب، وإيلينا كانت تخطو بصعوبة فائقة بين الحطام، القصر يشبه كثيرًا ما رأته في حلمها مما دفعها للصعود لأعلى لتتفقده، سارت تتفقد ما حولها، فما تتذكره أن الغرفة التي رأتها بكابوسها كانت في الأعلى، تجولت في الكثير من الغرف والممرات، إلى أن رأت غرفة بابها مكسور، وتشبه من الداخل ذات الغرفة خاصة الطفل الصغير، خطت إليها وبدأت تبحث عن أي شيء يدلها، لمْ تجد شيء في البداية، وأحست أنها ربما أخطأت الغرفة، كادت أن ترحل منها قبل أن يلفت نظرها ركن وحيد غير محترق من الغرفة، اقتربت إليه.. وعندما خَطت بقدمها أحست بشيء يتحرك تحتها، كانت أرضية هذا الركن من الغرفة غير ثابتة، أزالته إيلينا، ونظرت للأسفل، أبصرت مكانًا

مظلمًا، وهناك سُلم مُهترئ يصل للأسفل، ظنت أنه ربما طريق سري لقبو أسفل القصر، خطت للأسفل بحذر بعد أن أشعلت المصباح الذي كان بحوزتها، بينما السلم يهتز أسفل قدميها، كانت قد اقتربت للوصول حتى انهار السلم!

صرخة خرجت من فمها بينما استلمتها الأرض برحابة صدر.

تأذت قدميها، ويداها وجلست تنتحب من الألم، ألقت نظرة على ذلك السلم المحطم، لا سبيل للصعود مجددًا، عليها إيجاد مخرج آخر بعد البحث هنا، استقامت ونفضت الغبار عنها وتفقدت المصباح.

حاولت السير بقدم تعرج، كان القبو خانق ومخيف، مما أثار الخوف في قلب إيلينا، بدأت التفتيش عن أي شيء هنا ولكن بلا جدوى.

استغرق الأمر وقتًا طويلًا حتى وجدت صندوقًا مغلقًا كان مخبأ أسفل رُكام من الحجارة، حاولت فتحه لكن بلا جدوى؛ لذا قررت أخذه

معها، ووضعته جانبًا وعادت للبحث، ولكن سَمِعت صوت سقوط شيء مِن خلفها، التفتت للخلف وفتحت عينيها حد الجحوظ!، سقف القبو ينهار!

حملت الصندوق وركضت بأقصى سرعة لتنقذ نفسها من هنا، ومِن خلفها تتحطم الجدران ويهوى السقف والحجارة كادت أن تصيبها، تتفحص بعينيها المكان أمامها، لا تستطيع التركيز عما يدور بعقلها من أفكار سوداوية تؤول للموت وحسب، هنا تحت الحطام!

لَمحت إيلينا ممرًا طويل بجانبها، أسرعت إليه متجاهلة صوت التحطم القوي خلفها، ركضت إليه بأقصى سرعتها إلى أن رأت ضوء خافت يقترب منها، إنه مخرج النجاة!

واصلت الركض حتى خرجت من الممر ونظرت حولها تتنفس الصعداء تستند بيديها فوق رُكبتيها، كادت أن تبتسم بسعادة لنجاتها حتى نظرت للأمام!

هذا المكان لا يشبه باحة القصر التي أتت منها!، قطبت حاجبيها وتمتمت:

_أين أنا؟!

نظرت خلفها لتجد أن الممر قد اختفى، والقصر غير موجود بالفعل! كل ما تراه حولها هو الرمال.

وجدت نفسها في صحراء قاحلة، لا وجود للأشخاص والبيوت من حولها، الشمس حارقة، وهي مرهقة كثيرًا لتسي مجددًا، انتظرت القليل من الوقت لترى أي عابر يَمُر، إلى أن لمحت مِن بعيد عربة يَجُرها حصان، ركضت لها ونادت بصوت مرتفع:

_انتظر، يا سيد انتظر أرجوك...

توقفت العربة ووقفت أمامها تلهث، كان يقود العربة رجل مُسِن، حدق بها بتعجب وتساءل:

_ هل أنتِ تائهة؟

_نعم، أتعرف أين نحن؟

_نحن في أقصى جنوب چوكتار.

الفصل الثالث

(وكم من مجهول أفنى حياته في الحروب.. دون كلمة ثناء واحدة؟!)

إيلينا:

لمْ يعكر صفو حياتي الهادئة شيئًا حتى عثرت على هذه القلادة، ومن اليوم الأول لي في سيران وأنا أترنح بين مشكلة وأخرى، بطريقة ما خرجت مِن القصر المحترق لأجد نفسي في صحراء قاحلة، كنتُ واقفة منهمكة غير قادرة على الاستيعاب، أين أنا؟، أكان يجب عليَّ الخروج من القصر؟!

ـإلى أين تريدين الذهاب؟

ـأريد الذهاب إلى سيران.

ـ أنتِ من سيران؟ كيف أتيتِ إلى هنا إذًا!

ـإنها قصة طويلة ليس لي طاقة لأقصها عليكَ، أُريد فقط العودة، هل يمكنك مساعدتي، سيدي؟

_الطريق بين المملكتان شاق وطويل، لن أستطيع مساعدتك، ولا أظن أن هناك من سيقدر على إيصالك إلى هناك، يمكنني أخذك إلى المدينة ومن هناك تستطيعين تدبير أمرك.

_حسنًا خذني إلى هناك إذا سمحت...

أشار لي بيده للعربة وقال:

_ اركبي...

_شكرًا جزيلًا لك سيدي.

انطلق بالعربة وأنا غرقت في عالمي الخاص، أفكر فيما عليَّ فعله الآن وأين سأمكث، وأنا حتى لا أملك مالًا، لا أظن أنني سأستطيع العودة إلى سيران بسهولة، ماذا سأفعل هنا؟

أشعر أني في طريقي إلى الهلاك!

_عذرًا سيد...

_إليكساند، اسمي إليكساند ابنتي.

_عذرًا سيد إليكساند، أنا لست من هنا ولا أعرف أحدًا من المدينة، ولا أملك مالًا، أيمكنكَ مساعدتي في إيجاد مكان أمكثُ به وعملًا بسيطًا؟

حدق بي هذا الرجل ونطق أخيرًا بعد صمت دام لعشرة دقائق تقريبًا:

_أنا أعمل تاجرًا في السوق يمكنكِ مساعدتي في العمل مقابل المكوث معي أنا وزوجتي وإطعامكِ، نحن نعيش بمفردنا وكنت سأبحث عن شخص يساعدني بالفعل.

_موافقة

_حسنًا إذا يا...

ابتسمت بخفة وقلت:

_نادني إيلينا.

***

غفوت قليلًا حتى شعرت بالعربة قد توقفت عن الحركة وأردف الرجل:

_لقد وصلنا، انزلي...

_نزلت من العربة لأبصر أمامي منزلًا قديمًا في حي صغير هادئ، والسائرون به قليلون، طرق سيد إليكساند الباب، فُتح بعد ثوانٍ لتطل من خلفه امرأة مسنة تبدو جميلة رغم كبر سنها والتجاعيد التي تملأ وجهها، ابتسمت حينما تذكرت السيدة فيوليت، ابتسمت هي له

بملامح سعيدة، ثم تبدلت ملامحها للحيرة عندما لاحظتني، حدقت بي قليلًا ثُم لزوجها، فقال هو:

ـمرحبًا عزيزتي، رحبي بإيلينا ستمكث معنا قليلًا وستساعدني في العمل.

رحبت بي بابتسامة فشعرت بالراحة، كنتُ قلقة من ألا تتقبل مكوثي في منزلها، يبدو أن أهل هذه الممالك طيبون.

سيد إليكساند:

ـعزيزتي فلترشديها للغرفة التي ستمكث بها.

أوصلتني لغرفة صغيرة وضعت أغراضي؛ الكتاب والصندوق بها واستلقيت على الفراش لأنام قليلًا.

استيقظت في المساء وخرجت من الغرفة وسمعت صوت سيدة المنزل تناديني:

_تعالي إيلينا أنا في المطبخ.

توجهت ناحية الصوت، وجدتها تعد الطعام فعرضت عليها المساعدة، تحدثنا قليلًا، تعرفت عليها وعلى زوجها وطبيعة حياتهم وعملهم إلى أن أتى سيد إليكساند من الخارج وجلسنا ثلاثتنا على المنضدة نتناول العشاء.

كنا نتناول الطعام في هدوء إلى أن قطع هذا الصمت سيد إليكساند:

_إيلينا، متى تريدين بدء العمل؟

_من الغد إن أردت.

_حسنًا سنذهب صباح الغد للسوق.

ركبنا العربة أنا والسيد إليكساند صباحًا ومعنا البضائع التي يتاجر بها، وصلنا للسوق، وفتح السيد إليكساند متجره لنضع البضاعة، انتهينا وخرجنا لنقف في الخارج ننتظر الزبائن.

كان السوق كبيرًا به الكثير من الأزقة والحواري، تجار يفترشون الأرض ببضاعتهم وينادون الناس لكي يشتروا منهم.

بين أشخاص يشترون وآخرين يلقون نظرة على بضاعتنا انقضى اليوم، عُدنا للعربة وفي الطريق عددت العملات المعدنية والنقدية التي كسبناها، ثم سلمتها لسيد إليكساند.

مر أسبوع على هذا الحال وأنا أعمل من الصباح الباكر لنهاية النهار وأعود لأساعد زوجة السيد في المنزل، وأجلس في منتصف الليل أفكر في الخطوة التالية التي سأتخذها، وفي منتصف الأسبوع الثالث لي هنا ذهبنا للسوق كالعادة، كان الوضع مستقرًا إلى أن شُعرنا بحركة غريبة

في السوق، ثم دوى صوت صراخ النساء وهنَّ يركضن بأقصى سرعة ويولولن، ورجال يركضون منادين في السوق:

_ اغلقوا الدكاكين، اهربوا بما معكم، لقد أتت جماعة اللصوص!

حالة من الهلع أصابت كل من بالسوق، التجار يحاولون ادخال بضاعتهم للمتاجر وإغلاقها، وكل من بيده شيئًا يهرب به، وإذ بعدد يفوق العشرين شخصًا أو أكثر آتين من بعيد، جميعهم يرتدون حلة سوداء ووجوههم ملثمة لا يظهر منهم شيئًا سوى أعينهم، يحملون سيوفًا في أيديهم، منظرهم يدب الرعب في القلوب، لم أتحرك قيد أنملة وتسمرت أراقبهم يقتربون ومن خلفي صرخ سيد إليكساند:

_أسرعي إيلينا ادخلي البضاعة!

التفت له وشرعت أدخل البضاعة للمتجر لنغلقه، ولكن لم نلبث أن ننتهي حتى وصلوا إلينا، شعرت فجأة بأحد يسحب ما بيدي ومن

الصدمة لم أبدِ أية مقاومة، وبجانبي سيد إليكساند متشبث ببضاعته يرفض أن يعطيها لهم، وضع أحدهم السيف على رقبته، كان على وشك أن يؤذيه، وبحركة سريعة مني أوقعت السيف من يده ودفعته بعيدًا.

حدق بي هذا الشخص بأعين ترسل شرارًا أشعر به سيحرقني!، سحب سيفه من الأرض واندفع نحوي واضعًا إياه على رقبتي وقال:

_لم يتجرأ أحدًا على ردعي في السوق من قبل، لقد جنيتِ علىَ نفسكِ.

أوشك أن يشق عنقي بالسيف، ولكن أوقفه صوت أنثوي:

_اتركها، علينا أن نذهب سريعًا.

دفعني بعنف أوقعني أرضًا، وكان الباقون قد سرقوا كل شيء منا ورحلوا!

عدنا أنا وسيد إليكساند في العربة الفارغة من البضاعة والنقود وأي شيء!

لقد أظلم وجه العجوز، ملامحه بائسة، لقد فقد كل شيء! شعرت بالإحراج لرجوعي معه للمنزل رغم ما حل به، أكره أن أكون عبء علىَ أحد، ويجب عليَّ البحث عن عمل آخر، أخبرته أني سأذهب لأبحث عن عملٍ آخر بالسوق أو مكان آخر.

وبالفعل خرجت في اليوم التالي من بيتِهم بمفردي للبحث، أمضيت النهار أبحث وأسأل، وأتوسل لأحدهم لأعمل لديه وانتهى بي الأمر في السوق دون أن أجد عملًا، استسلمت وقررت الرجوع.

حل الليل عليَّ بينما أسير بخيبة أمل تثقلني، وفجأة! شعرت بمعصمي يسحب بقوة لأجد نفسي في أحد الأزقة، شهقة خرجت مَن فَمي كتمها من سحبني الذي اتضح أنه لم يكن سوى فتاة بعد إن نزعت

القناع من وجهها وظهرت لي ملامحها الأنثوية، فتاة تبدو في منتصف الثلاثينيات بأعين سوداء واسعة وأنف حاد ووجه صغير وشعر أسود مرفوع بعشوائية:

_بحثت عنكِ كثيرًا يا فتاة.

صوتها يبدو مألوفًا.. إنها من ضمن من سرقونا البارحة، تعكرت ملامح وجهي وقلت لها بحدة:

_ماذا تريدين بعد؟!

ليس لديَّ شيئًا آخر لتسرقيه.

شبح ابتسامة ظهرت على وجهها وقالت:

_تعجبني جرأتكِ كثيرًا.. ألا تخافين أن أؤذيكِ؟

_إن كنتِ ستقتلينني فاسرعي رَجاءً.

_تعجبيني، لمْ آتِ لقتلك يا فتاة.. لقد أتيت لأقدم لكِ عرضًا سخيًا، سأعيد لكِ جميع ما سُرق منكم البارحة وفوقه الكثير من المال ولكن بشرط واحد.

نظرت لها ساخرة والتزمت الصمت فتابعت هي:

_عوضًا عن التسول ستنفذين لي مهمة واحدة ومن بعدها أنتِ حرة.

_ماهي هذه المهمة؟!

_ستعلمين إن أتيتِ معي، ما عليكِ معرفته الآن، أنها ليست بسهلة، ستكون مغامرة مليئة بالمخاطر، ولكنها تستحق مقابل ما سأقدمه لكِ وإن وافقتي لا مجال للتراجع والانسحاب.

_لكني لست لصة مثلكِ، لن أنفعكِ بشيء.

ابتسمت بسخرية وأردفت:

_أنا لم أقل لكِ أن تسرقي شيئًا، لا تقلقي ستكون مهمة شريفة.

_أتعرفون ما هو الشرف؟!

_نعرفه جيدًا يا صغيرة، هل ستأتي أم لا؟

صمت قليلًا أفكر ثم قلت:

_أعيدي لي البضاعة أولًا ثم سأذهب معكم.

_اتفقنا، صباح الغد في نفس المكان سنتقابل، يا ...

_اسمي إيلينا..

_حسنًا إيلينا، أنا إيما.. ألقاكِ غدًا.

***

رحلت وعدت أنا بعدها لمنزل السيد إليكساند، جلست على الأريكة في غرفة المعيشة وهو بجانبي وبادر بالسؤال:

_هل وجدتِ عملًا؟

_أظن ذلك ووجدت طريقة لاستعادة بضاعتك!

تساءل هو بدهشة:

_بماذا تهذين؟ لقد سرقها اللصوص!

_لديَّ طُرقي، غدًا سنذهب أنا وأنت للسوق لتأخذها.

ملامح الدهشة لم تختفِ من وجهه، حدق بي وقال بتعجب:

_أشعر أنكِ قد ورطتي نفسكِ في المشاكل!

_حياتي مليئة بالمشاكل سيدي لا تهتم.

في اليوم التالي نهضت مبكرًا وتوجهت أنا وسيد إليكساند إلى السوق، حرصت على أخذ الكتاب والصندوق معي، فلا أعلم متى وكيف سأعود وكانت إيما الملثمة هناك، سلمتنا البضاعة ثم أخذتني في عربة وذهبنا تحت نظرات سيد إليكساند المتعجبة وفي طريقنا تساءلت:

ـإلى أين نحن ذاهبون؟

ـإلى أعلى الجبل..

قاطعتها قائلة بنبرة عالية:

ـأتمكثون في الجبل؟!

ـ وأين برأيك سيعيشون أمثالنا؟

لم أعلق وساد الهدوء بعد قولها الأخير إلى أن وصلنا إلى أعلى الجبل، نزلت من العربة وأبصرت مشهدًا لم أره في حياتي من قبل، أشخاص

كثيرون يجلسون في العراء بجانب خيم وكهوف؛ نساء يعددن الطعام، رجال يتبارزون بالسيوف، آخرون بأحصنة آتين وأطفال يركضون.

تبدو وكأنها حياة أخرى هنا، مجتمع آخر مختلف عن المجتمع الملكي وحياة الغنَى والقصور، أخذتني إيما حيث رجلين واقفين بالقرب من كهف ما وعندما نظرت إليهم عن كثب استطعت تمييز صاحب الأعين الحادة الذي كان سيقتلني، وجهه حاد كما أعينه، يبدو في أوائل الثلاثينات، شعره طويل بني، رجل طويل ذو بِنية ضخمة تنم عن كثرة القتال، والآخر يبدو في مثل عمره، لكن أقصر وشعره شديد السواد، ملامحه هادئة تختلف عنه صاحب الأعين الحادة الذي ينظر لي بحقد وأنا لم أقدر على منع ملامح السخط من الظهور على وجهي بالمقابل

ومن بين النظرات الحادة من كلانا قاطعتنا إيما:

_لقد أتيت بإيلينا، إيثان.

_جيد، سأبدأ تدريبها قريبًا.

إذن هذا الرجل اسمه إيثان، وماذا؟ عن أي تدريب يتحدث؟ نظرت لإيما بأعين متسائلة فقالت:

_ستعلمين قريبًا، لا تتعجلي يا فضولية.

***

استرحت في كهف حتى جاء الليل فشعرت بشخصٍ آتٍ واتضح أنها إيما، أكره انعدام الخصوصية!

أتت بجانبي وتحدثت:

_أظن أنكِ بخير الآن؛ لذا سأخبرك بما عليكِ معرفته، وبما أنكِ بالفعل هنا لا مجال للرفض.

_أعلم.

_حسنًا، سأنادي إيثان وليام وآتي.

خرجت وعادت مجددًا بصحبة الرجلين، جلسوا جميعًا وبدأ إيثان الحديث:

_كما تعلمين نحن جماعة اللصوص كما تسموننا، ولكن ما لا تعلميه أن كل شخص هنا هم المخذولون من المملكة، كل متشرد وكل

مظلوم لم يأخذ حقه، وكل من لم يجد فرصة للعيش بسلام آتى ليحتمي بالجبل وبنا.

أنهى إيثان حديثه ليتبعه ليام:

_المعروف عنا فقط أننا جماعة لصوص تسرق الأسواق وتنهبها، ولكن ما لا يعرفه الكثيرين أن لنا حياة هنا وأتباع متخفين في كل مكان في المملكة، ولسنا مجرد أوباش سارقون.. فهناك منا من كان من عِلية القوم، ولكنه تلقى الذل من حكام المملكة لأسباب يطول شرحها، وبيننا جنود ورجال حربيون.

_استنكرت ما قالوه لذا قلت بتعجب:

_كيف تغدون سارقين بعد أن كنتم ذوي مناصب عالية؟

إيما:

ـفي مملكتنا إما أن تغدو سيئًا أو تُهلك، لا خيار آخر، فُرضت علينا أشياء لم نكن نريدها، ستدركين هذا فيما بعد.

لم يقنعني ما قالت، فمهما كانت الظروف قاسية لا يعني هذا أن أغير من مبادئي، ولكني صمت أجاريها لأرى نهاية هذا الأمر.

إيما:

ـرأيت بكِ في السوق جرأة لم أرها في فتاة من قبل، ونحن نحتاج لفتاة مثلك لتنفذ مهمة في القصر وبعدها أنتِ حرة.

ـمهمة في القصر؟!

ـنعم، سنرسلكِ للقصر الملكي وستنفذين ما نقوله لكِ هناك، ومِن الغد سندربكِ وسنعطيكِ التعليمات.

_ماذا؟ أتريدون مني سرقة القصر؟!

ظهر الغضب على وجه إيما فقالت بنبرة مرتفعة:

_قلت لكِ لن تسرقي ومهمتكِ شريفة.

قلبت عيناي وتمتمت حسنًا.

نظر لي إيثان بأعين حادة وقال بصوت مرعب:

_قبل أن نخبركِ يجب أن تعلمي أن خروجك عنا أو خيانتك لنا تعني فصل عنقك عن جسدكِ.

ارتعبت من حديثه ونبرته لكني أخفيت خوفي خلف برود ملامحي وقلت:

_لن أفعل فلتقل ما تريد...

إيثان:

_ستذهبين للقصر لتجلبي لنا معلومات وتتقصي الأخبار لتنفيذ مهمة إنقاذ الملك.

_إنقاذ؟!

_نعم.. إنقاذ، فهناك مؤامرة تُحاك ضد ولي العهد.

نمت على وجهي ابتسامة ساخرة وقلت باستنكار:

_إذًا وأنتم أيها المتمردون قطاع الطرق مَن سينقذ الملك؟ أنتم بالفعل تنهبون المملكة، وتدمروها وقلتم أنكم خُذِلتم من حكام المملكة، ما الذي سيجعل عصابة اللصوص يقفون في صف الملك بدلًا من خيانته؟!

وقف المدعو إيثان وصرخ في بصوت جهور:

_كوننا لصوص للمملكة كما نلقب هو انتقام وجب علينا، انقلابنا على الحكام وإشعال الفوضى هو لإشعارهم بوجودنا ولسنا خونة للمملكة، الخونة هم من يقفون بجانبك ويدعون الإخلاص لتمنحيهم ثقتك وهم لا يستحقوها، من تعطيهم سيفكِ لتكوني أنتِ أول من يُقتل به.

إيما:

_هدفنا هو إنقاذ ولي العهد، فمن يَحيكون هذه المؤامرة ضده هم من يريدون الشر بالبلاد وهم نفسهم من أذونا، نحن لم نولد لصوص ولا خُيرنا لذلك، لقد اضطرتنا الحياة لذلك، صعب أن تعيشي في وضع فاسد دون أن تتلطخي، ولكن على الأقل لم نُفسد تمامًا، ما زال هناك بداخلنا شيء نظيف لم تلوثه الحياة، وسنساعد به المملكة، وبالفعل

بدأنا بالتخطيط لإنقاذ ولي العهد وكان ما ينقصنا فتاة تدخل القصر لمساعدتنا.

ـومن بين كل جواسيسكم هناك لا يوجد فتيات في القصر؟

ليام:

ـنحن لم نرسل من قبل فتيات للقصر، فقط رجال، هذه أول مرة، ولا نستطيع إرسال نسائنا من هنا والتضحية بهن.

صرخت بهم بصوتٍ عالٍ قائلة:

ـوستضحون بي أنا؟!

جاوبتني إيما بهدوء بارد:

ـقلت لكِ أنها مهمة خطيرة ولقد دفعنا لكِ ثمن ذلك وأنتِ وافقتِ لا تستطيعين المعارضة الآن.

انتهي الأسبوع بعد كم المفاجآت التي تلقيتها، تأقلمت على الوضع، أشعر أنني سأقضي ما تبقى من حياتي بين الهرب من مكان لآخر، من قصر لقصر، ومن مملكة لأخرى، يوقظوني كل صباح ليقدموا لي طعام الإفطار، كنت أظن أنهم سيهملونني، ولكنهم عاملوني بإحسان، قالت لي إيما أن أذهب لإيثان ليبدأ تدريبي اليوم، ذهبت حيث يقف في ساحة التدريبات، وكالعادة قابلني بذات النظرة على وجهه، أمقته كثيرًا، ومن الواضح أنه يمقتني أيضًا، أستطيع أن أرَى نظرات الكرة التي يرسلها لي:

_هيا لنبدأ...

_هيا...

_أتعلمين شيئًا عن القتال؟

_تعلمت فنون القتال من قبل.

_إذًا سنبدأ بها، أريني قدراتكِ.

اندفع لي وهاجمني، أرسل لكمات لي وأنا تصديتُ لها، حاول إيقاعي أرضًا ولكن انقلب الأمر عليه وأوقعته أنا، وسرعان ما نهض وبحركة سريعة داهمني وأوقعني فانهزمت، مد يده لي لأنهض بينما يقول:

_لستِ سيئة، تثابرين كثيرًا وهذا جيد ولكن أمامكِ الكثير لتتعلميه لكي تكوني جاهزة.

نهضت أنفض الغبار عني وتابع هو:

_ماذا عن المبارزة بالسيف؟

توترت ولُجم لساني لبُرهة، لمَ سأحمل سيفًا؟ هذا مخيف

نظر لي منتظرًا إجابة فقلت متلعثمة:

_لا.. لمْ أحمل سيفًا من قبل، أهذا ضروري؟

تنهد بإحباط وبنبرة حازمة قال:

ـنعم ضروري، سأعلمك كيف تحملين السيف جيدًا وتتحكمي به وكيف تبارزين، وكما تظهرين شجاعتك في الأشياء الأخرى، اظهريها في هذا أيضًا.

أومأت له وأحضر لي سيفًا وضعه بين يديّ فوقع مني.. كان ثقيلًا عليَّ وهو كان يزعم بأنه أحضر لي أخف السيوف، حملته مجددًا بصعوبة، ثم انقضى النهار وهو يدربني على استخدامه.

وفي الليل أخذتني إيما للجلوس مع بعض النساء، جلسنا كلنا في العراء بجانب الخيام حول النيران، نظرت لهم إيما وبدأت تعرفهم عليَّ:

ـ هذه إيلينا.. انضمت لنا حديثًا وستساعدنا كثيرًا...

رحبوا بي ومن بينهم فتاة تبدو أكبر مني بقليل، ملامحها جميلة وهادئة، تمتلك أعين شديدة الزرقة وشعر بلون الذهب، بشرتها شاحبة وجسدها صغير، ابتسمت لي بلطف وقالت:

_مرحبًا بكِ إيلينا أنا صوفيا...

ابتسمت لها وهمست إيما في أذني:

_إنها خطيبة إيثان وزفافهم قريب.

حدقت بإيما ثم بصوفيا متفاجئة، كيف يمكن لفتاة لطيفة ورقيقة مثلها أن تصبح زوجة هذا الرجل القاسي، إنهم مختلفان كالنهار والليل، الضوء والظلمة، كيف يمكن أن يجتمع شروق الشمس مع غروبها في آنٍ واحد؟

قطع شرودي إحدى النساء:

_تبدين غريبة الملامح يا إيلينا!

_ماذا تقصدين؟

_لم أرَ فتاة صهباء في المدينة من قبل، جميع من قابلتهم كانوا من خارج المملكة.

_هذا صحيح أنا لست من هنا.

تعجب الجميع وحاولوا معرفة من أين أنا، وكيف أتيت هنا لكني فقط صمت، لذا غيروا الحديث وتابعن هذه الجلسة لنتشارك أحاديث أخرى.

***

مر شهران منذ جئت أمكث في أعلى الجبل، أتدرب وأتلقى تعليمات لمَ سأفعله في القصر، اتضح أنني سأعمل طاهية في القصر ضمن الطهاة الملكيين، بطريقة ما استطاعوا وضعي في هذا المكان، يبدو أن أتباعهم كثيرون ولديهم نفوذ كبيرة في القصر، وفي بداية الشهر الجديد جلسنا أنا وإيما وإيثان ليعلموني بآخر التعليمات.

إيثان:

_لقد تدربتِ بما يكفي، إيلينا.. سنرسلكِ للقصر في الغد.

إيما:

_العمل في القصر ليس صعبًا، ستعملين أربعة أيام وتعودي لنا الأيام المتبقية من الأسبوع، لتعلمينا بكل شيء.

_حسنًا...

ليام:

_سأدخلكِ للقصر وسأكون معكِ هناك إن احتجتِ شيئًا، من الغد عليكِ مراقبة الجميع في القصر بدون استثناء؛ الملك والملكة والأمراء الصغار.. ولي العهد ذو الخامسة عشر عامًا، وأخيه الأمير ذو السبعة أعوام، والحاشية والخدم والوزراء وسنخبركِ ما عليكِ فعله أيضًا.

علمت بما يجب عليَّ فعله لهم في القصر بجانب أهدافي الشخصية التي إلى الآن لمْ أخبرهم بها وأعتقد أني لن أخبرهم، ويبدو لي أنني سأبدأ مغامرة جديدة في قصر چوكتار الملكي

***

أخذني ليام للقصر ودلفنا من البوابة الأمامية، قصر ضخم لا يقل روعة عن قصر سيران.. استقبلنا بعض الخدم وانحنوا باحترام لليام، نظرت له بدهشة!، لمَ ينحنون له؟!

سرنا بعيدًا عنهم فهمس لي:

_أنا قائدًا حربي، لا تندهشي.

أومأت بصمت وذهبنا للمطبخ الملكي، مكان عمل الطهاة وهناك قابلنا سيدة تبدو في عقدها الرابع، رحبت بليام وألقى هو عليها السلام، ثم أردف مشيرًا لي:

_ مرحبًا سيدة كلوديا هذه إيلينا؛ الطاهية التي أخبرتكِ عنها.

نظرت لي هي بابتسامة بشوشة وقالت:

_مرحبًا بك يا صغيرة...

انحنيت لها ثم تركني ليام معها، أخبرتني بما عليَّ فعله في المطبخ الملكي، وأين سأمكث في القصر وبما أنني هنا طاهية ملكية ولست مجرد عاملة فسأمكث في غرفة لي وحدي.

حل الليل عليَّ هنا في القصر وأنا أجلس في غرفتي، أفكر في طريقة تخرجني من هذا المأزق الذي وضعت نفسي به، يجب أن أجد حلًا لإبطال هذه التعويذة بأسرع وقت وإلا سأموت هنا!

في يدي يقبع صندوق جاك ووالده، نظرت له وتذكرت ميرال.. كم اشتقت لها! بالتأكيد هي تبحث عني الآن، أشعر بالذنب لخيانة ثقتها بي.

حاولت فتح الصندوق، ولكنه مُغلق بإحكام، جلبت شيئًا حاد لأكسره واستطعت كسره بصعوبة لأرى ما بداخله، فوجدت العديد من الأظرف الورقية.

أمسكت واحدًا عشوائيًا وشرعت أقرأ ما بداخله:

"لم نكن متحدين في الحرب، كان بيننا بعض الخونة المتواطئين مع الممالك المجاورة ضدنا، كدنا أن نُهزم بسببهم، ولكن بفضل الشعب الذي يمكث في حدود المملكة وتطوعهم قد انتصرنا".

انتهى المكتوب في الورقة فطويتها وأخرجت ورقة أخرى:

"لقد وشمهم برمز الثعبان، كل من يحمل رمز الثعبان أصبح تابع للخونة".

ارتعشت ونظرت للوشم على ذراعي، لماذا ورطت نفسي؟!

القلق ينهش قلبي، كل شيء غامض هنا ولا أجد تفسيرًا منطقيًا لِمَ حل بي!، كيف وشِمت برمز الثعبان وأنا لا أعلم من هم هؤلاء الخونة حتى؟!

أغمضت عيني لثواني وأخذت نفسًا عميقًا، ثم فتحتها لأكمل قراءة هذه الورقة:

"لقد انتشروا كالسم في أرجاء المملكة، عددهم لا يُحصى، الكثير من الوزراء من ضمنهم، وأشخاص آخرين غير متوقعين والإمبراطور ما زال صامتًا!".

جف الحبر عند هذه الكلمة، تنهدت بصوتٍ عالٍ وطويت الورقة لأخرج غيرها، كنت خائفة مما سأقرأه تاليًا، لكن عندما وقعت عيناي على الورقة، ابتسمت بوهن هذه المرة:

"ألن تعود؟ اشتقت لكَ، عد فقط وسأخبر أخي أن يجد حلًا، چاك..، أنت قوي للغاية، أنا أثق بكَ".

طويتُ الورقة وأنا أحاول السيطرة على دموعي، لم أختبر من قبل شعور أن تتألم لألم أحدًا آخر، لكن ميرال غيرت في الكثير، استجمعت شتات نفسي، وأمسكت بورقة أخرى وقرأت ما بها:

"صغيري چاك...

كيف الحال؟ إن كنت تقرأ هذا الآن فهذا يعني أنني رحلت، وأنك بدأت في اكمال مسيرتي الحربية، في البداية أريدك أن تعلم أن حياتك ستكون أشبه بقارب صغير يصارع وسط الأمواج الهائجة وأنت يا عزيزي صاحب القارب فبيدك مقاومة الأمواج وبيدك الاستسلام لها، واعلم أن لهذه العواصف نهاية.

سأرحل وستغدو شابًا قويًا من بعدي؛ والقوة هي أن تواجه مخاوفك وضعفك، أن تصمد في وجه الرياح العاتية، هناك أوقات ستضعف وستسقط بها، لكنك ستنهض مجددًا، وفي طريقك ربما تضطر

للتضحية بأشياء في سبيل أشياء أخرى، لم يولد بعد من يستطيع الحفاظ على كل شيء، ستضحي بالكثير لأجل سلام المملكة، فالتضحية شيء لابُد منه في هذه الحياة.

كونك قائد حربي سيجعلك تشهد الكثير مِن المصاعب، سترى الدماء والمعارك كما يرىَ الناس شروق الشمس وغروبها كل يوم، سيكون صعبًا في البداية ولكن ستعتاد، لا تقلق ستصبح صلبًا لا يضعفكَ شيء!

بني، لا أعلم وأنا أكتب لك هذا متى ستكون آخر مرة أراك بها، لكن اعلم أنني دومًا بجانبك، أراك وأساندك، أعلم أن والدك يحبك".

طويت الورقة الأخيرة لليوم وهذه المرة لم أسيطر على دموعي، يا تُرى كم شخص آخر فقد عزيزًا عليه في تلك الصراعات؟ وكم من جنود

وقواد عاشوا وسط الدماءِ من أجل المملكة، وكم من مجهول أفنى حياته في الحروب دون كلمة ثناء واحدة؟!

****

في اليوم الثاني لي في القصر كنت أعمل في النهار أطهو، وفي الليل أتقصى الأخبار هنا وهناك، ولكن لم أجد ما هو مريب بعد.

وفي اليوم الثالث انقضى النهار وحل الليل الساكن، وحان وقت تنفيذ الجزء الآخر من مهمتي.

تسللت لجناح الوزير الأعلى للمملكة كما أخبرني ليام، وهناك وجدت حارسه.. اقتربت منه فلاحظني، سلّمت له مرسال جماعة اللصوص، أخذه مني، قرأه وأومأ لي ثم همس:

_اتبعيني...

تبعته لباحة القصر الخلفية وهناك وقفنا وتحدث:

_انظري.. ستبلغين إيثان بكل حرف أقوله.

_سأفعل...

تنهد ونظر للسماء ثم نظر لي وقال:

_الوضع مُتأزِم كثيرًا، لقد عقد الوزير البارحة اجتماع مع أعوانه من الخونة، لقد حددوا الليلة التي يريدون فيها اغتيال ولي العهد ستكون بعد أسبوعين من الآن...

أخبرني بتفاصيل أخرى، ثم عاد لعمله، وأنا اتجهت لغرفتي، ولكن قبل أن أخرج من باحة القصر سمعت صوت سير لأقدام ولمحت بجانبي طيف شخص يتسلل بحذر، التفت للجانب وإذ بي أرَ الملكة، أغلقت عينيي وفتحتها لأتأكد مما أراه فالمفترض أن العائلة الملكية في

أجنحتهم الآن نائمون، لا زلت أَرى الملكة تسير للأمام تعطي لي ظهرها ويبدو أنها لمْ تلاحظني، سرتُ ببطء شديد خلفها كي لا أحدث صوتًا إلى أن وقفت هي في أكثر بقعة مظلمة في باحة القصر، وأنا اختبأت بالقرب منها، دقيقة.. دقيقتان... حتى سمعت صوت أقدام مقتربة فنظرت بطرف عيني فوجدت الوزير الأعلى للمملكة!

كيف أتى لهنا بينما كنت للتو بجانب جناحه؟!

اقترب للملكة كثيرًا ودار بينهم حديث استطعت سماعه بوضوح:

_لقد تأخرت يا أليكس...

_عذرًا ملكتي...

_إذًا ما الجديد لديكَ؟

_لقد دبرنا كل شيء تقريبًا، سيتم خطف ولي العهد وقتله ومِن ثم سنحدث بلبلة كبيرة لتعم الفوضى.

_جيد، اسرعوا إذًا...

وضعت يدي على فمي أكتم شهقتي من الصدمة!

كيف لأم أن تشارك في جريمة لقتل ابنها؟!

الفصل الرابع

(البشر أحيانًا يغضون أبصارهم عن الحقيقة،

وينسون أن لا وجود للصالحين في عالمنا)

إيلينا...

وضعت يدي على فمي أكتم شهقتي من الصدمة!

كيف لأم أن تشارك في جريمة لقتل ابنها؟!

نظرت لهم بطرف عيني فكانوا على وشك التحرك؛ لذا ركضت سريعًا، كي لا يلاحظوني، ركضت إلى أن وصلت لباب غرفتي، وقفت ألهث وأتلفت حولي، لعل يكون قد رآني أحدهم.

لحسن حظي لم أجد أحدًا، فدلفت الغرفة وأوصدت الباب، استندت عليه وانزلقت قدماي، وضعت رأسي بين يداي أتنهد بصوتٍ عالٍ، لا زلت لم أفق من صدمة ما سمعت، استقمت ونهضت للسرير لكي أنام، أريد وبشدة لهذا اليوم أن ينتهي.

أتى صباح اليوم الرابع وهو آخر يوم عمل لي لهذا لأسبوع وسأعود في الليل للجبل، مر اليوم في العمل سريعًا، وحينما اقتربت الشمس على الرحيل ذهبت لغرفتي أجمع أمتعتي التي سأرحل بها ومن بينها كان كتاب الإمبراطور الأعظم، أمسكته وقررت الاطلاع عليه قليلًا بعد، لعلي أفهم ما هي القلادة وكيف قُتل الإمبراطور، فتحتها على صفحة عشوائية وقرأت:

"في مكان بعيدٍ للغاية ستخبأ القلادة، ولن يستطيعوا جلبها حتى وإن قُلبت المملكة رأسًا على عقب، وحتى إن وجدوها ستكون كاللعنة التي ستحل عليهم!

وطالما أن القلادة مخبأة، ستتلاشى قوة المملكة وإن شنت الممالك المجاورة حربًا أخرى، سيكون مصير سيران هو الانهزام وهذا أكثر ما أخشاه.

لن تعود القوة الكامنة في القلادة إلا بطريقة واحدة..."

جف الحبر عند هذه الكلمة، لا أفهم، القلادة التي بحوزتي هي قوة سيران؟ ماذا يعني بكونها قوة ولعنة؟، كيف تكون قوة مع وجود تعويذة بها الَّتي لا زلت أجهل كيفية إبطالها، أشعر برأسي سينفجر!

أغلقت الكتاب بإحباط وحزمت أمتعتي لأرحل مع ليام.

وصلت للجبل واستقبلوني إيما وصوفيا بعناق جعلني أندهش.. لم أتصور أنه يمكن أن يشتاق لي أحد إن غبت! بادلتهم العناق وابتعدت لأذهب كي أستريح، لكن صوت إيثان الحاد أوقفني:

_إيلينا، سنجتمع الآن لتخبرينا بما حدث هناك، هيا فلتأتي...

تنهدت بحسرة فأنا متعبة كثيرًا، ولكن لا مجال للرفض، ذهبت حيث يجلسون وجلست على الأرض معهم فخاطبتني إيما:

_إذًا قابلتي الحارس وأعطيته المرسال؟

_ نعم، وأخبرني بإبلاغكم أن الوزير عقد اجتماعًا لأتباعه لتحديد يوم تنفيذ خطتهم، وسيكون ذلك اليوم بعد أسبوعين من الآن، سيتسللون بالليل لجناح ولي العهد ويخطفونه ليقتلوه، وسيذيعون خبرًا أن ولي العهد ذهب للتدريب في الغابة وقد اختفى وأنهم سيبحثون عنه وبعد فترة سيظهِرون جثته ويقولوا أنهم وجدوه مقتولًا في الغابة.

أنهيت كلامي ونظرت لوجوههم الّتي قد احتدت ملامحها، حل الصمت قليلًا يبدو أنهم يفكرون في حل للأمر، ثم أردف ليام:

_ يجب أن نسرع فيما سنفعله لننقذ الجميع.

أومأ له إيثان مؤكدًا وقال:

ـ بالطبع... إذًا إيلينا هل لاحظتي أي شيء آخر؟

ـنعم، لقد رأيت شيئًا خطيرًا.

ـ ما هو؟

نظرت لهم بتردد وأحسست بثقل ما سأقوله، استجمعت شجاعتي، وأخبرتهم بأمر الملكة بنبرة مهزوزة تكاد تُسمع، نظرت لي إيما وقالت بسخرية:

ـهذا شيء متوقع من الملكة.

ـكيف يكون شيئًا متوقعًا.. أن تخطط أم لقتل ابنها؟!

ـ هي ليست أمه، إيلينا...

حدقت بإيما متعجبة لتكمل:

ـ الملك عندما تسلم الحكم قد تزوج أميرة وأنجب منها ولي العهد، ولكنها ماتت مبكرًا تاركةً ولي العهد وهو لا يزال صغيرًا جدًا، وبعدها ببضع سنوات تزوج الملك من الملكة الحالية وأنجب منها الأمير الصغير، والملكة لا تحب الملك وتحمل الضغينة لولي العهد وبالطبع ترغب بأن يصبح ابنها، هو ولي العهد.

ذُهلت لمَ قالته إيما، فأنا لم أتوقع أبدًا هذا الوضع، ولكن.. حتى وإن لم تكن أمه الحقيقة، من أين لها بهذه القسوة لتخون زوجها وتقتل طفل صغير؟!

في نهاية جلستنا نظرت لي إيما وقالت:

ـإيلينا، لقد نفذتِ مهمتكِ، لكِ الحرية الآن أن تذهبي أو تبقي معنا وتساعدينا حتى إنهاء المهمة.

ترددت قليلًا ثم قلت:

_سأبقى...

***

مرت الأيام التالية في توتر شديد، كل قواد جماعة اللصوص المتمردين يسابقون الزمن لإيجاد خطة لإنقاذ ولي العهد بأسرع وقت، وفي نهاية الأسبوع أبلغتني صوفيا أن القواد سيعقدون جلسة ويريدوني هناك، ذهبت لهم وكان عدد القواد الموجودين ليس بقليل، جلست بينهم وبدأ إيثان الحديث:

_بما أن الجميع هنا سنتفق جميعًا على تنفيذ الخطة.

وفي نهاية حديثة وجه أنظاره لي وقال:

_إيلينا، الخطة معتمدة عليكِ بشكل كبير، بالأحرى إنها تتمحور حولكِ، نجاحها أو فشلها بيدكِ.

شعرت بأنفاسي تتثاقل والعرق يتصبب مني، كيف يكلفون فتاة عادية مثلي بمهمة ضخمة كهذه؟!

لاحظت إيما توتري فأمسكت بيدي وهمست بالقرب مني:

_لا تقلقي، أنتِ لها...

أومأت لها بتردد، ثم خاطبت إيثان:

_ما الذي يجب عليَّ فعله؟

إيثان:

_قبل أن يختطف رجال الوزير ولي العهد ستتسللين لغرفته وتخطفيه أنتِ.

_كيف ولماذا سأخطف ولي العهد؟!

_كيف.. ستتسللين بعد منتصف الليل، وسيكون معكِ مادة مخدرة مصنوعة من أعشاب لدينا وموضوعة في قطعة قماش، ستضعينها على أنفه وهو نائم، ثم ستحملينه سريعًا وسينتظرك حارس تابع لنا في

الخارج، لماذا؟.. لنأخذه قبل أن يأخذه رجال الملك، علينا أن نسبقهم بخطوة ونمنع تنفيذ خطتهم.

التزمت الصمت ولم أعلق لذا تحدث بجانبي رجل ما من الجالسين:

_لن تكوني بمفردكِ، سيكون معكِ الكثير منا، وبعد أن نتأكد من سلامة ولي العهد، سنعيده للملك ولكن هناك عائق يقف أمامنا.

_ما هو؟

_علينا الإيقاع بالوزير وباقي الخونة، حتى نثبت للملك أن هدفنا من اختطاف الأمير كان حمايته منهم.

_وكيف سنفعل ذلك؟

إيثان:

_لا نعلم كيف.. طوال هذه المدة ونحن نراقبهم ونعلم تحركاتهم، ولكن لا نستطيع إثبات أي شيء ضدهم، هذا الأمر يتطلب دلائل ملموسة.

_دلائل ملموسة! كماذا؟

_كوثائق الوزير الّتي عليها رمزهم.. رمز الثعبان، ومراسيل الوزير وغيره من الخونة.

اضطربت حينما ذكر إيثان أمر الرمز، ولكني تمالكت نفسي سريعًا وتظاهرت بالثبات:

_وأين يحتفظون بهذه الأشياء؟

_في مقرهم بالطبع، ولا أحد يستطيع الولوج له سوى من يحمل وشمهم، فهناك حراسة مشددة لهذا المكان.

_وأنتم تعلمون أين يقع هذا المقر؟

إيما:

_نعم، نعلم.. يقع وسط الغابة في مكان مخفي عن الأعين، ولكن لماذا؟

ترددت كثيرًا فيما سأقوله، ولكن أعتقد أنه الحل الوحيد ولا يوجد سبيل آخر، وبدون أن أفكر أكثر قلت:

_إن دليتموني على مكانه سأستطيع جلبه لكم.

اندفع الجميع للأمام وتوسعت أعينهم وكأنها ستخرج من مكانها، وهتفت إيما بصوتٍ عالٍ:

_ كيف ذلك؟!

كيف ستستطيعين الولوج للداخل؟

ـاتركوا هذا الأمر لي، أنتم فقط أروني أين يقع المقر وأنا سأهتم بالباقي، يمكنكم الاعتماد عليَّ.

ابتسم إيثان بسخرية واستنكر ما أقوله واستهزئ بي:

ـ من أنتِ لتفعلي ما عجزنا نحن أمامه، أتظنين أنكِ قادرة على مجابهة هؤلاء الأشخاص؟!

ضغطت على فكي السفلي، شعرت بأسناني تكاد تتحطم من شدة الغيظ، حاولت التحلي بالهدوء وقلت بنبرة واثقة وأنا أحدق بعينيه بثبات:

ـأمهلني أسبوع واحد وسأريك ما أستطيع فعله وكيف سأجلب لكَ هذه الأدلة، لا تستهن بي أيها القائد.

ابتسم مجددًا بسخرية، وتحداني قائلًا:

ـحسنًا إذًا، أمامكِ أسبوع واحد قبل تنفيذ المهمة وإن لمْ تستطيعي جلبها، ستدفعين ثمن تأخيرنا غاليًا.

تغيرت نبرته في النهاية من الساخرة للحدة المخيفة، لم أزح عينيي من عينيه الحادة، فحتى وإن كنت أرتعب من الداخل لن أظهر له سوى ثباتي، نظر لي لثوانٍ ثم نظر للآخرين وقال:

ـوإلى أن يحين هذا الوقت علينا أن نجد خطة بديلة في حالة فشل إيلينا.

***

في ظلام الليل الحالك أسير في طريقي لمقر الخونة ذوي رمز الثعبان، كان معي إيما وليام ليدلوني على الطريق، وصلنا لأقصي شرق المملكة حيث الغابة، وهناك وجدنا المقر مختبئ خلف الأشجار العالية، ويقف أمام الباب حارس ضخم، أخبرت إيما وليام أن يبتعدوا من هنا كي أذهب أنا، اتجهت للحارس وهو بدوره رفع سيفه في وجهي وصرخ:

_من أنتِ؟

_رفعت كُم ملابسي وأريته الوشم وقلت:

_أنا منكم، ولقد أمرني الوزير الأعلى بجلب أشياء له من هنا.

نظر لي بتمعن، وأومأ بتردد، ثم فتح لي باب المقر ودلفت للداخل، شرعت بالبحث عن الوثائق والرسائل المختومة التي يريدوها، استغرق الأمر وقتًا لإيجادها من وسط كل الأشياء الموجود هنا، حملت ما أريده وخرجت، نظر لي الحارس ولمَ أحمله، لكنه لم يعلق،

فظلام الليل لم يوضح ما أحمله، أخبرته بأني أخذت ما طلبه الوزير، ثم استدرت عائدة حيث إيما وليام. عندما ظهروا لي على مرمى بصري، ركضت إيما مقتربة لي وتساءلت بلهفة:

_إيلينا، أنتِ بخير؟!

لقد تأخرتِ وكنا على وشك أن نذهب لكِ، ظننا أن مكروه قد حدث لكِ.

رأيت القلق بادٍ على تقاسيم وجهها، تفاجأت قليلًا وبدون إدراك ابتسمت لها وقلت:

_لم يحدث شيء، ولقد نجحت في جلب ما تريدون.

وفي نهاية كلامي رفعت الأدلة في وجهها، اقترب لي ليام وقال باندهاش:

_أيتها الفتاة، كيف فعلتها؟!

_ لديَّ طرقي الخاصة، قلت لكم لا تستهينوا بي.

ظل الاندهاش على محياهم فقالت إيما:

_لا أعلم كيف، ولكن أنتِ مدهشة حقًا، أنتِ بطلتنا إيلينا.

ليام:

_نعم بالفعل، نحن شاكرين لكِ فلولاكِ لَمَا استطعنا القيام بالمهمة.

نمت ابتسامة على وجهي، أظن أنني لن أتوه مجددًا.

***

أتى اليوم المنتظر.. يوم تنفيذ خطة الإنقاذ، كنت في القصر انتظر أن ينتهي عملي ويسكن الجميع في غرفهم لأذهب وأخطف ولي العهد، دقت الساعة وأتى منتصف الليل فتوجهت لجناحه، لم يكن هناك أمام جناحه أحدًا، ببطء خطوت للداخل لكي لا أصدر صوتًا يوقظه، وفي يدي قطعة القماش، اقتربت منه ووضعتها على أنفه، بعد دقائق قليلة هززت جسده لأتأكد من تخدره، وقد كان قد تخدر بالكامل، حملته على ظهري وخرجت وكان الحارس التابع لنا في انتظاري، حمل الطفل عني وركضنا لخارج القصر، كنت أتلفت بجانبي كل دقيقة أتأكد من عدم رؤية أحد لنا، اقتربنا للمخرج الخلفي للقصر وتنفست الصعداء فقد شارفت مهمتي على الانتهاء، ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان!

سهم غائر اخترق جسد الحارس ليستقر في صدره، وقع هو وولي العهد فوقه، أخذتني الصدمة وأنا أحدق بهم، ثوانٍ حتى سمعت أصوات ركض آتية من بعيد، لم ألبث أن أحمل ولي العهد وأهرب به

حتى وجدت اثنان يكبلاني من الخلف والوزير الأعلى واقف أمامي، يبتسم لي بسخرية وحوله آخرون، حدق بي طويلًا ثم قال:

_ إذًا أنتِ من تسللت للمقر وسرقتنا؟

فنظر لمن يكبلاني وقال:

_ خذوها للزنزانة واحبسوها بتهمة محاولة خطفها لولي العهد.

***

زنزانة مظلمة وأرض قاسية، لا يوجد بها غطاء أو غذاء! كم الوحدة موحشة هنا.. ألقوني في هذه الزنزانة بلا طعام أو شراب لمقربة يومين.. أهذا عقاب أم موت بالبطيء؟!

جسدي أصبح هزيلًا للغاية وأشعر بالانهيار.

من يصدق أن مرتكب الشر في الخارج بينما أنا هنا؟! لمَ الحظ السيء دومًا يلاصقني؟

فُتح باب الزنزانة ودلف منها الوزير، نظر لي بتدنٍ وقال:

_هل أعجبكِ الوضع هنا؟

ثم ضحك بصوت عالٍ، كظمت غيظي لأني لا أملك القدرة حتى للرد عليه، وهو اقترب لي بخطوات بطيئة متغطرسة بينما يتحدث:

_لنرى إذًا، محاولة خطف ولي العهد لقتله عقابها الإعدام.

صُدمت مما قاله لي وكيف استطاع قلب الأمور لصالحه، فصرخت به غاضبة:

_أنت تعلم أنني لم أرد قتله!

رفع كتفيه بجهل وقال بلا مبالاة:

_حقًا؟! أنا لا أعرف شيئًا.

_ لكني أعرف كل شيء.

_وهل يمكنكِ إثبات أي شيء؟

ابتسامة حقيرة رُسمت على وجهه، نظر لي باستهزاء ثم استدار وذهب.

جلست هنا لنصف يوم آخر ولم يقدموا لي سوى الزهيد من الطعام والماء، كنت جالسة أفكر في الجماعة، ماذا فعلوا يا تُرى؟ هل حقًا

نسوني محبوسة هنا ولم يأبهوا بي؟ لمَ لمْ يحاولوا إنقاذي؟ أليس لديهم أعوان في كل أركان القصر؟ إذًا لمَ لمْ يرسلوا لي أحدًا؟

مرت ساعتان أو أكثر وكنت على وشك النوم أو بالأصح الإغماء، لكن.. سمعت ضجيج آتٍ من الخارج، ثم لاحظت باب الزنزانة يُفتح، أعيني مشوشة ولم أستطع الرؤية بوضوح، لكني شعرت بشخص يقترب مني، وُضع شيئًا على كتفي، فالتفت جانبي، كانت يد وصاحبها يهمس في أذني:

ـ إيلينا، إنها أنا إيما.. هيا قد آتينا لإنقاذكِ.

أدركت أن من أتوا للتوهم جماعة اللصوص، حاولت الوقوف ولكن قدماي لم تحملاني وجلست مجددًا، فأسندتني إيما من جهة وشخص آخر من الجهة الأخرى وعلمت أنه ليام عندما قال لي:

ـهيا إيلينا اصمدي قليلًا، أنتِ قوية تحملي.

خرجنا من الزنزانة وتسللنا لباحة القصر الخلفية، وكان إيثان هناك ومعه آخرون، كدنا أن نخرج لكن فجأة باغتنا الوزير وأعوانه، اشتعلت حربًا بين جماعة اللصوص ورجال الوزير، كل هذا وكل من بالقصر نائم ولا أعلم أين الملك من كل هذا!

كنت واقفة اراقبهم وهم يتقاتلون، يبدو أن جماعة اللصوص هم الأقوى فقد قُتل معظم رجال الوزير.

جسدي يهتز من الخوف، وأشعر بحركة بجانبي، تراجعت للخلف، ولمحت شخصًا يقف خلفي فالتفت ورأيت رجل يشهر سيفه في وجهي، هاجمني به، وأنا استسلمت للقتل، ولكن صده إيثان بسيفه، وشرع يتقاتل معه، وضع إيثان سيفه على رقبة خصمه، شعرت باطمئنان لأن إيثان انتهى منه وقد انتهى اللصوص من أعوان الوزير أيضًا والوزير قد اختفى!

نظرت مجددًا لإيثان وتبدد شعوري بالاطمئنان حين هاجم أحدهم إيثان من الخلف، وضرب ظهره بالسيف، صرخ إيثان من الألم وصرخنا جميعًا معه من الخوف، توجه ليام سريعًا لقتل هذا الوغد ولكنه قد هرب، اقتربت أنا وإيما حيث جثة إيثان الواقعة، كان لديَّ بصيص أمل أن يكون ما زال على قيد الحياة.. ولكن قد توقف نبضه، نظرت لإيما بيأس وهي صرخت بإيثان تهز جسده:

_قم يا إيثان، قم يا إيثان زفافك قد اقترب.

بدأت الدموع تتساقط من عينيها، حتى ليام يبكي أيضًا ووجدت نفسي أبكي معهم أيضًا، وبصوت مختنق من البكاء قالت إيما:

_أرجوك قم أنت قائدنا ماذا سنفعل بدونك، كيف سأخبر صوفيا؟ أنها تحبك لن تتحمل!

ظلت تبكي حتى صرخ بنا ليام:

_هذا ليس وقت البكاء انهضي.

ارتجفت أوصالي من صوته الغاضب، وأدركت أن غضبه ليس منا، بل هو غاضب من قتل رفيقه، أشار لباقي الرجال معنا وقال لهم:

_احملوا جثته وباقي جثث رجالنا، لن نتركهم هنا، سندفنهم في الخارج.

أشار لي ولإيما بالخروج سريعًا قبل مجيء أحدٍ، وخرجنا كلنا من القصر.

أخيرًا.. ركبنا عربات كانت تنتظرنا وانطلقنا.

في طريق بائس وطويل وكأنه بلا نهاية حل الصمت تمامًا، إيما تنظر للأسفل مقهورة وحزينة.

اقتربت لها وضممتها لحضني، وهي شرعت تبكي بحرقة وتصرخ بقهر:

_ كان قائدنا، كان أخًا لي، هو من آواني.

_اهدأي إيما، اهدأي، يجب أن تصمدي.

ألقيت كلماتي عليها، وأنا غير مقتنعة بها، فكيف لها أن تصمد في موقف كهذا، وإن كان شعور إيما هكذا فكيف سيكون شعور صوفيا؟ أشعر بالرهبة والقلق من لحظة علم صوفيا ما حدث.

***

انقضى الليل واستيقظت الشمس من نومها، ونحن لم ننم للآن!

نظرت لإيما الساكنة، أمسكت يدها وقلت:

_إيما، ماذا سنفعل الآن؟

بصوت باكي وبدموع عالقة في جفونها قالت بهدوء:

_سنذهب لدفن الجثث ثم سنرجع لمقرنا.

_أليس علينا الرجوع الأول ثم دفنه لنخبر الجميع؟

نفت بهدوء وبصوت ضعيف أضافت:

_الطريق لمقرنا في الجبل بعيدة، وأيضًا لن تتحمل صوفيا.

أومأت بتفهم وانتظرت لنصل، وبعد ساعة أخرى وصلنا لمكان خالٍ من الناس وغادرنا العربات، حمل رجلان جثة إيثان ورجال آخرون بدأوا بالحفر في التراب، انتهينا من الدفن وسط الدموع والنحيب.

أخبرنا ليام أننا سنخيم اليوم هنا وننطلق للعودة غدًا.

نصب الرجال الخيام ولقلة عددها تشاركنا أنا وإيما خيمة واحدة، وبينما أتجه لخيمتي لمحت هيئة طفل، دققت بملامحه وإذ به ولي العهد!

دُهشت مما رأيت ودلفت الخيمة أسأل إيما:

_هل أحضرتم ولي العهد؟!

_أجل أحضرناه.

_كيف؟!

_اجلسي وسأخبركِ بكل شيء.

جلسنا أنا وإيما، وأخبرتني بكل ما حدث:

_علمنا أنهم حبسوكِ، لذا خططنا لإنقاذكِ، أخذ الأمر منا وقت لنستعد لمَ سنفعل ولنصل للقصر، ذهبنا لهناك وخدرنا الملك وآخرون

ليتسنى لنا الفرصة لتحريرك وأخذ ولي العهد، وبعد يومين سنعيده ومعنا الأدلة التي وجدناها وبهذا تكون المهمة قد انتهت.

_ماذا وجدتم في الأدلة؟

_تنهدت إيما طويلًا وأخرجت ما في جعبتها:

_وجدنا الكثير إيلينا، سلسلة من الخيانات العظمى للمملكة، اكتشفنا أن من قتل الإمبراطور الأعظم هو أحد أعوانه، لكن لم نعرف من هو بالتحديد، ووجدنا رسائل وتوجيهات مختومة بختمهم اللعين تنص على خيانات للمملكة وتحالف مع الممالك المجاورة وخطط لقتل العائلة الملكية.

تنهدت بحزن ثم أردفت:

_إذًا مهمتي قد انتهت هنا؟

_بالفعل قد انتهت ولقد جلبت لكِ أشيائك معي إن أردتِ الذهاب من الآن.

تسرب الحزن لقلبي عندما نَطَقَتْ بذلك، كنت قد بدأت أشعر بالانتماء لهم ولا أريد الابتعاد بعد انتهاء المهمة.

لاحظت إيما عبوس ملامحي لذا قالت لي:

_إيلينا، دعينا نقتل الحزن بالأحاديث، أليس لديكِ أي فضول اتجاهي أنا أو جماعتنا؟

_نعم لديَّ، أريد ان أعلم كيف نشأت فتاة قوية مثلكِ.

ابتسمت إيما بضعف تقاوم الحزن وكأنها تحارب وبهدوء يطغى على وجهها ونبرتها قالت:

_كنت ابنة أحد كبار أشراف المملكة، رفض والدي التواطؤ مع الخونة أصحاب وشم الحية، لذا قتلوه هو وأمي وأخي الكبير، كان من المفترض أن أُقتل أيضًا في ذلك الوقت، ولكني كنت في الخارج عند معلم المدينة أدرس مع زميلاتي وعدت في الليل ووجدت المنزل محترق!

لقد أحرقوا منزلنا وكأن الحريق نشب من غير تعمد، إنها عادتهم في التخلص من أي شخص يقف في طريقهم، أواني في هذا الوقت إيثان ووالدته، كنت في ربيعي الثامن عشر حينئذ.

_ وكيف تشكلت جماعتكم؟

_تشكلت من كل مظلوم في المملكة وكل شخص رفض التواطؤ مع الخونة، معظمنا من القواد وباقي الأفراد كان من العائلات المخملية في المملكة، كنا نبحث عنهم لينضموا إلينا، كان إيثان يفكر في هدف

واحد عندما جمعنا أنا وليام والباقون في البداية، وهو تنظيف اسمنا ورجوع حقنا، فوالده ووالد ليام كانوا من قواد الجيش المخلصين الذين قتلوا بدم بارد ولم يأبه أحد لموتهم.

كنا نجول المملكة بحثًا عما يشبهنا لنأويه وينضم لنا، مثلكِ.

_مثلي!

_نعم، كان لديكِ مهمة في البداية ومن ثم ترحلي، لكن يبدو أنكِ مثلنا، انتهت المهمة بالفعل ولكن يمكنكِ البقاء معنا إن أردتِ.

لم أشعر بنفسي سوى وأنا أعانقها شاكرة، ثم ابتعدت عنها بحرج قائلة:

_أريد أن أعترف لكِ بشيء.

_ما هو؟!

ـ كنت أظنكم أسوأ من ذلك، كنت أمقتكم في البداية ولا أطيق صبرًا حتى تنتهي المهمة، كنت أشعر أنكم من أسباب الفساد بالمملكة.

ـ ليس كل ما تشعرين به أو تظنيه يكون صحيحًا، فالبشر أحيانًا يغضون بصرهم عن الحقيقة وينسون وجود الصالحين في عالمنا، ويتناسون أن حتى السيء هناك سبب دفعه ليصبح هكذا.

ـ أنا آسفة كثيرًا، كانت رؤيتي للأمور سطحية.

ـلا يهم إيلينا، المهم هو أن نظرتكِ لنا قد تغيرت، وأنكِ أصبحتِ منا الآن.

***

مع بزوغ الشمس ركبنا العربات مجددًا، عائدين حيث سأمكث لفترة طويلة، من اليوم سأتفرغ لإيجاد حلًا لمشكلتي مع هذه القلادة، أفكر في أخبار إيما، ولكني مترددة، ما زلت لا أستطيع وضع كامل ثقتي بأحد.

كان الطريق هادئ كالعادة، صوت العربات والأحصنة على الطريق هو فقط ما يسمع، قطعت صمت الطريق متسائلة:

_كيف ستخبرون صوفيا؟

ارتبكت إيما وكأنها كانت تتهرب من السؤال، التزمت الصمت لثوانٍ ثم قالت:

_لا أعلم بعد، سيكون الوضع صعبًا عليها وعلينا كثيرًا، أخشى أن يحدث لها شيئًا!

_أكانت تحبه كثيرًا؟

_للغاية إيلينا.

_دائمًا كنت أتساءل كيف جمعهم القدر بالرغم من اختلاف شخصياتهم! هو متسلط وبارد كالثلج وهي رقيقة ودافئة كحبات المطر.

_يمكن لإيثان أن يبدو متسلطًا، ولكنه في الحقيقة حنون ومشجع، هو فقط صارم فيما يتعلق بالمهام، أتعلمين.. كان يمدح قوتكِ ويمدح شجاعتكِ، خصوصًا بعدما جلبتِ لنا الأدلة.

_حقًا!، لقد اعتقدت أنه كان يحتقرني.

ابتسمت إيما بخفة وقالت:

_هو فقط كان يبدو هكذا، ولكنه كان العكس تمامًا.

أومأت وكدت أتحدث مجددًا، ولكن صوت مرتفع من الخارج أوقفني!، عَلا صهيل الأحصنة، أصوات تحطم لأشياء من خارج العربة يخترق أذني، وفجأة ارتفعت العربة التي نحن بها لفوق فصرخنا، ثم شعرنا بها تتدحرج بسرعة هائلة على الطريق، لقد فقدنا السيطرة!

فكي ارتطم بحافة العربة من الداخل بقوة، وشعرت بدماء تسيل من وجهي، أطلقت إيما صرخة مدوية وأخذت تنادي باسم ليام، ومن بعدها ارتطم رأسها بالعربة من فوق وسكن صوتها فجأة.. لقد فقدت وعيها!

اصطدمت عربتنا بشيء ضخم وارتدت للخلف وجسدي قد أُعتصر بداخلها!

ثم توقفت العربة دون حراك!، أشعر بألآم بالغة في جميع أنحاء جسدي، والدماء تقطر من وجهي، نظرت لإيما بأعين شبه مفتوحة وناديت عليها بنبرة ضعيفة:

ـإيما..، إيما هل تسمعيني؟ إيما أرجوكِ أجيبي.

لمْ تقل شيئًا فتأكدت أنها غابت عن الوعي، حاولت رفع صوتي لأنادِي أحدًا من الخارج، ولكن لم أقوَ على ذلك، أشعر بجسدي وكأنه مُكبل لا أستطيع تحريكه والرؤية غير واضحة، داهمني دوار حاد أحاول أن أبقى مستيقظة، أشعر أنني على حافة الموت!

حاولت المقاومة لأبقي عيناي مفتوحة، ولكن بلا جدوى.. أُغلقت عيناي رغمًا عني.. أشعر أنها النهاية!

الفصل الخامس

(أليس من حق الأقوياء أن يمروا بأوقات ضعفٍ وانكسار؟)

إيلينا:

أسمع أصواتًا كثيرة آتيةً من حولي، فتحت عيناي ببطء وسرعان ما أغلقتها مجددًا عندما قابلني ضوء الشمس، فتحتها مجددًا بعد ثوان فأبصرت حولي مكان أشبه بالصحراء ولكنها مختلفة عن صحراء جبل چوكتار، خيم منصوبة على أبعاد منتظمة، على يميني رأيت بنادق حربية بجانبها بعض السيوف والرماح، شعرت بأنني أجلس على شيء صلب، وإذ بي أجد نفسي جالسة على حطام العربة التي كنت بها أنا وإيما.. أين إيما؟!

وكيف نجوت من الموت؟!

لقد ظننت أن نهايتي على الأبواب!، ولكن يبدو أن للقدر رأي آخر.

نظرت أمامي أبحث بعينيي عن إيما، فرأيت على مرمى بصري صفوفًا من الرجال يقفون بدون حراك، كل منهم لديه بنية ضخمة ومخيفة،

وجميعهم يرتدون زِي موحد لونه رمادي، أحسست بيد تنقر كتفي فالتفت لأرَى رجل قصير ذو شعر أشقر وبشرة شاحبة يرتدي ذات الملابس الرمادية، لوح بيديه أمام وجهي وقال:

_يا فتاة.. لقد أفقتِ أخيرًا!

استجمعت ما تبقى من قوتي واستندت على يداي لأنهض، لكن خارت قواي، نادى هذا الرجل شخص آخر كان يقف بعيدًا وقال لي:

_أنتِ مصابة لن تستطيعي النهوض بمفردك سنساندكِ لخيمة ونعالج جروحكِ.

في الخيمة وقبل أن يفعلوا شيئًا سألت ذو الشعر الأشقر:

_أين أنا ومَن أنتم؟

ـ أنتِ على حدود أوكتراس ونحن...

قاطعه ولوج شخص من الخارج بخطوات ثابتة ووجه بارد بلا تعابير، أعين سوداء ضيقة تثير الخوف، وشعر بني قصير، يبدو في آواخر العشرينات، ويرتدي زِي أسود مختلف عن الباقين، انحنى له الرجلان، تخطاهم واقترب مني وأنا بقيت ثابتة، نظر لي بتعجب ساخط ويبدو أنه كان يتوقع مني أن أنحني له أيضًا، عاد لبرود ملامحه وأردف:

ـأنتِ من يفترض علينا سؤالكِ.. من أنتِ؟ وماذا تفعلين بين كتائب الجيش؟

ـماذا؟!

بسخرية ابتسم لي وقال باستهزاء:

_هل ستتدعين عدم المعرفة؟!

_أنا حقًا لا أعرف، أنا تائهة ولا أعلم كيف أتيت لهنا حتى!

تأفف بضجر وأمر الذي بجانبي قائلًا:

_ضمدوا جراحها واجلبوا لها طعامًا، فنحن نحسن إكرام ضيوفنا، وأعتقد أن مكوثها معنا سيطول.

أنهى حديثه وبخطوات شامخة أخذ طريقه للخارج، نظر لي ذو الشعر الأشقر وقال:

_ما اسمكِ؟

_اسمي إيلينا.

_حسنًا إيلينا، من الأفضل لكِ أن تخبرينا بكل شيء كي لا تُسجني.

_سأقول كل ما أعرفه، فقط أريد أن أعلم شيئًا.. كان معي فتاة أخرى أين هي؟

_أي فتاة؟ نحن لم نجد غيركِ.

_هل أنت متيقن من ذلك؟!

_بالطبع متيقن.

ألجم لساني من الصدمة التي ليست الأولى، صدمة تتبعها صدمة تتبعها صدمة، وكارثة تتبعها كارثة إلى أن وصلت لهنا!

أنا في أوكتراس! كيف أتيت إلى هنا؟ أين إيما؟ كانت معي في العربة، كنا في چوكتار وفي طريقنا للمقر، كيف وصل الحال بي لهنا؟ الكثير من التساؤلات داهمتني وأشعر بألم رأسي قد اشتد، أمسكت رأسي بيدايَّ وصرخت من الألم، مما أفزع هذا الرجل وسأل بدهشة:

_ماذا حدث؟ انتظري قليلًا فسيأتي الطبيب.

أومأت له فأتى الطبيب سريعًا، ضمد جروحي بأعشاب طبية وأعطاني أخرى لألم رأسي وجسدي، جلبوا لي بعض الطعام وتركوني أستريح، سأنام كي لا أفكر بما يحدث معي.

***

استيقظت ليلًا وخرجت من الخيمة، رأيت على مرمى بصري ذو الشعر الأشقر فذهبت له، اقتربت فلاحظني وقال لي:

_لقد وجدنا حقيبة في حطام العربة، أظنها تنتمي لكِ، سأجلبها لكِ الآن، ابتعد وجلبها ثم آتى وأعطاها لي، جيد إنها تحتوي على أشيائي:

_شكرًا لكَ، وأيضًا هل يمكنني معرفة اسمكَ؟

_سام القائد سام، الأمير چايدن أمر بإحضاركِ له بعد أن تستيقظي لذا سأدلكِ على مكانه.

قال كلماته، وتحرك للأمام وأنا أتبعه، أخذت ثوانٍ لأتذكر أين قد سمعت بهذا الاسم من قبل، أنه ولي عهد أوكتراس الذي ستتزوجه ميرال رغمًا عنها!

لكن كيف آتى من القصر إلى هنا سريعًا؟!

قاطع حبل أفكاري وقوفنا أمام خيمة أضخم بكثير من التي نمت بها، دلفنا لداخلها وهناك وجدت ذلك الرجل المتسلط الذي اتهمني صباحًا بكوني جاسوسة!، جالس وأمامه منضدة صغيرة جدًا عليها شراب ما.

سام:

_لقد أتيت بها جلالتك سأخرج الآن.

تركني سام معه وخرج، حال الصمت بيننا بينما كل ما يفعله هو إرسال نظرات مخيفة لي!

ظل يحدق بي بتمعن طويلًا ثم قال بنبرته الهادئة بثبات:

_إذًا ألن تعترفي من أين أتيت وماذا تفعلين هنا؟

_لقد قلت لك مسبقًا، أنا تائهة ولم آتِ لهنا عن قصد أو لغرض معين، وفي أقرب فرصة سأذهب.

جفلت حينما ضرب المنضدة بيده بشده، ووقع كوب الشراب أرضًا وانسكب على ردائه، لم يأبه به وصرخ بي:

_لن تخرجي من هنا حية قبل أن تخبريني بكل شيء.

_أخبركَ بماذا؟!

أنا لم أفعل أي شيء، ولم أقترف ذنبًا لكي تحبسني هنا!

ابتسم بسخرية وقال بحدة:

_أنتِ لستِ في حديقة لتأتي وتذهبي كما ترغبين، أنتِ في معسكر الجيش!، ولن أدعكِ تذهبين حتى أتأكد منكِ.

أنهى كلامه وأشار بيده للخارج، يأمرني بالخروج، يا له من وقح متعجرف!

خرجت لأجد مَن يُدعى سام واقف أمام الخيمة، نظر لي وقال:

_لا أعلم لمَ، لكن لا أظن أن المملكة المجاورة سترسل فتاة هزيلة مثلكِ لكي تتقصى أخبارنا!

_لم يرسلني أحدًا بالفعل!، ولا أعلم كيف أقنع الأمير بهذا!

_أنتِ فقط ستمكثين هنا لمدة تحت المراقبة وإن كنتِ خالية من أي شبهات سيطلق الأمير صراحكِ.

أومأت له باستسلام وأخذت حقيبتي وعدت للخيمة التي وضعوني بها.

جلست أرضًا، وأخذت كتاب الإمبراطور أتفحصه هذه المرة بتمعن لعلي أجد ما يفسر لي مجيئي إلى هنا، ظللت أقرأ بعيني المكتوب ولم أفهم شيئًا!

ولكني تعجبت من جملة لفتت نظري:

"ما بدأ بالدم سينتهي بالدم".

حاولت إيجاد معنى لهذه الجملة ولكن لم أستطيع أغلقت الكتاب، تنهدت بضيق وأرجعت رأسي للخلف، متى سينتهي هذا العذاب؟!

متى سأعود لحياتي الطبيعية؟!

***

مر يومان على مكوثي هنا، لن أخرج من هذه الخيمة سوى للضرورة، وكلما أخرج أتلقى النظرات المتعجبة من الجنود والساخطة من الأمير چايدن، نادوني في الليل لتناول العشاء وجلست أرضًا بعيدًا عن الجنود، لكن أذني التقطت حديثًا ضايقني، دار بين الأمير وشخص آخر يبدو في مثل عمره، حيث بدأ هذا الشخص حديثه بسخرية لاذعة:

_ألن تتصرف مع هذه المتطفلة يا حضرة الأمير المُبجل؟

چايدن:

_ليس لك شأن يا هينري!

صمت المدعو هينري قليلًا ثم استرسل الحديث:

_وجود شخص مشتبه به كجاسوس هنا وتركه ليس بالأمر الجيد لكَ يا قائد الجيوش، شيء جديد يضاف لقائمة الأشياء التي تثبت عدم استحقاقك لهذه المكانة أيها المدلل.

انتفض الأمير واقفًا وسحب هينري من ملابسه وبوجه متهكم صرخ به:

_لا تنسى مقامك أيها الحقير!

ثم لكمه في وجه فارتد هينري للخلف، كاد الأمير أن يمسك به مجددًا لولا تجمع الجنود حولهم وسحب سام الأمير لكي يوقفه، أغمض الأمير عينيه وزفر أنفاسه ثم أمر الجميع بالرجوع لأماكنهم وابتعد هو عن محيطنا.

تابعته بعيني ثم ذهبت خلفه لأحدثه، كنت خائفة جدًا، لكن لديَّ شيء يجب أن يُقال، كان واقفًا بشموخ يضم كفيه معًا خلف ظهره وأعينه شاردة، اقتربت له فلاحظ وجودي، وبالرغم من ذلك لم يكلف نفسه عناء النظر لي وفقط قال بهدوء:

_ماذا تريدين؟

ارتبكت من نبرته الباردة وأخذت مدة قصيرة لأرتب الكلمات، ونطقت أخيرًا بنبرة أحاول فيها اخفاء خوفي:

_أردت فقط أن أخبرك شيئًا، أنا لست جاسوسة أو ما شابه، أقسم لكَ بحياتي أني مجرد فتاة عادية أتت لهنا بالخطأ.

التفت لي بهدوئه المعتاد وقال:

_حسنًا..

لم يضف حرفًا آخر لذا غادرتُ صامتة وتركته.

يبدو أنه يحمل في نفسه الكثير!

***

انقضى ثلاثة أسابيع منذ ذلك اليوم والحال تغير قليلًا، لقد اعتاد الجنود رؤيتي ولم يعد الأمير يلقي عليَّ نظرات ساخطة، بل أصبح يحدثني بطريقة جيدة، وأصبحت أتحدث مع سام من حين لآخر وأستسفر منه على أي شيء أريده، خرجتُ من خيمتي في الصباح الباكر وكنت قد سئمتُ الملل، ذهبت للبقعة التي يتدرب فيها الجنود عادتًا ولحسن حظي لم يكونوا بها يبدو أنهم في مكان آخر، رأيت بعض السيوف فتذكرت حينما دربني جماعة اللصوص وخاصةً إيثان على حمله والمبارزة به، حملتُ واحدًا منهم وعادت ذكريات چوكتار إليَّ، كنت شاردة إلى أن أيقظني صوت الأمير الشامخ الآتي من خلفي:

_طريقتكِ في حمل السيف صحيحة، فهل يا تُرى تجيدين المبارزة؟!

التفت له بارتباك من سؤاله ولم أجد مجالًا للتهرب منه:

_نعم قليلًا.

_حقًا؟!

من أين قد تتعلم الفتاة المبارزة؟

_لقد علمني صديق ما كيفية المبارزة لأدافع عن نفسي.

أومأ بشك ثم رفع سيفه وقال:

_حسنًا، إذًا لنرى مهاراتكِ...

رفعت السيف بتردد، وحاولت التحكم بارتعاشات يداي!

لا أصدق أن من أمامي وسأبارزه هو قائد جيوش مملكة وأيضًا أميرها!

داهمني بالسيف، ولكنني تصديت له فابتسم بجانبية، تابع هجماته لي وكنتُ أتصدى لجميعها، وفي آخر مرة داهمني ولم أستطع التصدي لها وكاد سن السيف الحاد أن يُغرز بجسدي، ولكنه توقف قبل أن

يلمسني، ثم ثبت السيف على رقبتي، كنتُ أتخبط من الخوف أمامه لكن هو لم يأبه وقال:

_لستِ سيئة، وفي ذات الوقت لستِ جيدة كفاية كجاسوسة.

_قلت لك أنني لست جاسوسة!

_ربما.

أنزل سيفه من على رقبتي وقال:

_آمل أن تكوني لستِ جاسوسة حقًا لتخرجي من هنا حية، فأنا ليس من شيمي إيذاء النساء.

***

حل الليل وقررت أن أفعل شيئًا مختلفًا، قررت أن أذهب وأساعد الجنود المسؤولين عن الطعام اليوم في إعداده.. فأنا لا أحب أن أكون عالة على أحدهم، تقدمت حيث هم واقفون يشْوون لحمًا قد اصطادوه ويعدون أشياء أخرى وقلت:

_أعرف جيدًا كيف أعد الطعام يمكنني مساعدتكم.

نظر لي الجميع بتعجب، ولم ينطقوا بحرف فأخذت منهم الأواني البسيطة وشرعت أساعدهم، صدموا في البداية، ولكنهم تركوني أفعل ما أريد وبادر أحدهم بالحديث:

_إنها المرة الأولى التي تأتي بها فتاة إلى هنا!

الجميع تعجب في البداية وظن أنكِ شخص دُفع ليتجسس علينا، لكن إلى الآن لم يبدر منكِ أي فعل يدل على ذلك، لا تبدين لي كجاسوسة.

ابتسم بلطف في نهاية حديثه فابتسمت له أيضًا وأردفت:

_نعم الجميع ظن إني جاسوسة، لكن هذا ليس صحيحًا.

أنهيت حديثي ثم نظرت لهم جميعًا وسألت:

_إذًا حياة معسكر التدريب مرهقة للغاية؟

رد عليَّ جندي آخر وهو يمد لي إناء به ماء مغلي:

_كثيرًا، ولكنها تصبح أسهل بفضل الأمير قائدنا.

_كيف؟

_هو حازم كثيرًا ولا يتهاون معنا، ولكن في نفس الوقت يهتم بنا، يهتم بطعامنا واحتياجاتنا اللازمة، وإن أصيب أحدنا أو مرض فهو يعفوه عن التدريب ليستعيد عفيته، لقد أصبحنا أقوى حربيًا منذ أن تسلم هو مهمة قيادة الجيش، ولكن وجود القائد هينري يعرقل عليه أعماله.

ـمن هو هينري بالنسبة للجيش؟

صمت الفتى قليلًا ثم استرسل الحديث:

ـهو ابن أحد الوزراء للمملكة في مثل عمر الأمير.. فدائمًا ما يغار من الأمير، يريد أن يوقع به ليحل محله في قيادة الجيش ويثبت عدم استحقاقه.

أنهى كلامه ليعلق شخصًا آخر على حديثه:

ـسمعتُ أن الأمير قد عانى كثيرًا ليستحق هذه المكانة ولا أظنه سيفرط بها ويدع هينري يأخذ مكانه.

أومأ الآخر له مؤكدًا، وفجأة أفزعنا صوت الأمير من الخلف:

ـبما تثرثرون؟ وأنتِ ماذا تفعلين هنا؟

ـكنتُ فقط أساعد في إعداد الطعام.

نظر لي بحده ثم سحب يدي وأخذني بعيدًا عنهم وقال بنبرة عالية:

_كَوني أعطيتكِ الحرية للتجول لا يسمح لكِ بالوقوف مع الجنود، هذا معسكر تدريب وليس مكان للثرثرة التافهة.

_حسنًا، أنا آسفة.

_تأفف بضجر وقال:

_قريبًا سأدعكِ ترحلين عن هنا بعد أن أتأكد تمامًا منكِ؛ لذا حاولي إمضاء هذه الفترة بدون إحداث أي جلبة.

_سأفعل جلالة الأمير.

صمت قليلًا ثم تابعت:

_لديَّ فضول حول شيء ما هل يمكنني سؤالك؟

_ما هو؟!

أغمضت عينيي وفتحتهما مجددًا أستجمع شجاعتي ثم أردفت:

_لقد سمعت أن جلالتكَ والأميرة ميرال أميرة مملكة أوكتراس ستتزوجون، فمتى سيتم الزواج؟

_أي زواج؟!

لن يكون هناك أي زواج!، لقد رفضت.

ابتسامة بلهاء رُسمت على وجهي حينما أدركت أن الأميرة ميرال لن تُجبر على الزواج، لاحظ هو ابتسامتي فنظر لي بتعجب ثم تساءل:

_كلما حاولت الثقة بنواياكِ تجبريني على الشكُ بكِ!

كيف لكِ أن تعلمي أمرًا كهذا وهو لم يُذَع خارج القصر؟!

_كنتُ وصيفة الأميرة ميرال لذلك أعلم بهذا، لكن الأميرة ميرال قالت إن جلالتكَ من المستحيل أن ترفض من أجل مصلحة الشعب!

إذًا لِمَ رفضت؟

أظلم وجهه وقال بنبرة مختنقة:

_لا أريد أن أكرر خطأ والدي.

_ماذا؟

_اذهبي الآن!

أمرني بالرحيل بحزم، وتركني في دوامة أفكاري.

***

مر شهر ونصف منذ مجيئي هنا ويبدو أن الأمير أصبح يثق بي كليًا، فقد تطورت علاقتي معه الأيام الفائتة وعلمت عنه الكثير، وأيضًا طلبت منه أن يكلفني بأعمال أفعلها لكي أقضي الوقت الفارغ وكي لا أثقل عليهم، فعلت كل ما طُلب مني لليوم واتجهت في طريقي قاصدة خيمتي لأنال قسطًا من الراحة، أشعر بأني منهكة من هذا اليوم الطويل اقتربت من الخيمة وفجأة.. شهقت بفزع حين شعرت بذراعي تُسحب وشخص يديرني للخلف، استدرت ووجدته سام يلتقط أنفاسه ويبدو مضطرب.

فاندفعت عليه بالأسئلة قائلة:

_سام ما بك؟

ماذا حدث؟

لمَ أنت بهذه الحالة؟

أخذ يسترجع أنفاسه الضائعة، تنهد ثم قال بلهفة:

_الأمير چايدن يتشاجر مع هينري ويكاد يهشم وجهه.

شهقت فزعة وسحبته معي ليدلّني على مكانهم، ركضت حتى ساحة التدريب ووجدتهم هناك؛ كان چايدن يمسك هينري من ملابسه وهينري يفترش الأرض ووجهه ينزف الدماء، انتفضت حينما صرخ چايدن به بصوته الجهور:

_ألن تكف عن ألاعيبك؟

ألن تعتقني أبدًا؟!

أتريد أن أقتلك لننهي هذا الأمر؟

اندفعت لهم مع سام وتشبثت أنا وسام بچايدن من الخلف نحاول أن نبعده عن هينري، الفترة التي مكثتها هنا ليست بقليلة وأعلم أن چايدن إن فقد صوابه سيقتله!

سحبناه وهو صرخ بنا يحاول المقاومة والإفلات من بين أيدينا ليعود ويضربه مجددًا، لكني صرخت به أن يتوقف إلى أن شعرت به يستكين مكانه، تنهد وقال لي ألا أتدخل، لكني تشبثت به أكثر، قال في وجهي بحدة قائلًا:

_ابتعدي من هنا، لا شأن لكِ، اتركيني حالًا.

_لا!، لن أتركك، دعه يذهب چايدن.

نظرت لجانب وجهه القريب مني وهمست بصوت لا يصل لهينري:

_هذا ليس الحل، ستهدم كل شيء في لحظة، اهدأ أرجوك.

تنهد بصوتٍ عالٍ وأرخى يديه من حول هينري وابتعد، نظرت لهينري الملقي بالأرض، وبرغم حالته المزرية أعطى چايدن ابتسامة مسهزئة ثم نهض بصعوبة ورحل، يا له من حقير ألم يكتفِ بعد؟!

حدقت بعيني چايدن فأشاح بوجهه بعيدًا ونفض نفسه من بين

أيدينا وتركنا وذهب ليجلس بجانب النيران المشتعلة قُرب خيمته، أعلم أنه يتألم ولا يريد إظهار ضعفه أمامنا، كم هو صعب الصمود أمام الجميع والتألم وحدك، لمَ لا يحرر ذاته من كل هذا ليبقى الأمير والقائد الذي لا يُقهره شيء؟!

أليس من حق الأقوياء أن يمروا بأوقات ضعفٍ وانكسار؟

هم الأولى بهذه الأوقات، لأنهم تحملوا ما لم يحتمله غيرهم.

التفتت لسام وقالت:

_سأهتم به، اذهب أنت لتأخذ قسطًا من الراحة.

أومأ لي وذهب، وتوجهت لجايدن، جلست بجانبه، وحاولت أن أصدر صوتًا، لكنه لم يعرني أي انتباه، ظل يحدق في النيران بأعين شاردة، لذا بادرت بالحديث:

_إلى متى ستبقى هكذا؟

_لن أطيل البقاء، الأمير جايدن يظل ثابتًا قويًا رغم الرياح العاتية.

_ إلى متى ستظل تكذب وتخبر نفسك أنكَ قادر على مواجهة كل شيء؟

نظر للأمام بثقة وقال بنبرة استنكار:

_وهل هناك شيء أنا غير قادر عليه؟!

_ذاتك!، لا تقوى على مواجهة ذاتك، أنت تتهرب من حزنك، مخاوفك، وضعفك!

_أنا لا أتهرب منهم، أنا أدفنهم بداخلي، أنتِ لا تعلمي شيئًا!

_إذًا أخبرني.

حدق بوجهي مطولًا وقال بهدوء:

_ماذا أخبركِ بماذا؟!

_أخبرني بحزنك شاركني ألمك، چايدن.

لمَ؟!

لمَ سأخبركِ عن ألمي بينما لن تستطيعي فعل أي شيء سوى الشفقة عليَّ.

_أنا لم ولن أشفق عليك بتاتًا!، لا أعلم أن كنت سأستطيع مساعدتك أم لا، لكني واثقة من مشاركة الألم تخفف من حدته، ألقي بأحمالك عليَّ چايدن ولن أخذلك.

_كيف أثق بكِ لأخبركِ؟ أنا لا أثق في ظلي.

أعلم، أعلم أنك لا تثق بي، لكن ما الذي يمكنني فعله بكَ وأنا هنا تحت رحمتك؟!

نظر للسماء وصمت ومن فمه خرجت تنهيداته مثقلة حزينة، التفت نحوي مجددًا وأردف:

_كيف يمكنني اطلاعِك على ألم ثمانِ وعشرين عامًا، ذكريات مؤلمة حاولت دفنها لسنوات.

_احفر بداخلك لتتخلص منها، كي لا تبقى هكذا مع الجراح.

ـ لم أكن أميرًا عاديًا، إيلينا.

لم أولد وفي فمي ملعقة من ذهب، عانيت كثيرًا لأكون ما أنا عليه الآن.

ـ يمكنك أن تعبر عن معاناتك الآن جايدن.

ـ بدأ كل شيء حينما تزوج أبي من الأميرة التي لا يحبها، تزوجها لمصلحة البلاد، حملت أمي بي وماتت أثناء ولادتي، لم أرها في حياتي يومًا، ورغم ذلك أحتاجها وأشتاق لها كل يوم!

كبرت وبدأت أشعر بإهمال أبي لي، كنت أبحث عنه دائمًا كأي طفل يرغب برؤية والده، ولكنه كان يبعدني عنه بقسوة!

كنت أبكي كأي طفل صغير يحتاج حنو والديه، ومربيتي كانت تخبرني دائمًا بأنه مشغول أو أن مزاجه متقلب فقط وأنَّ عليَّ أن أنتظر،

كبرت وأنا أنتظر منه أي شيء يروي عاطفتي لكن بلا جدوى، كبرت وبدأت أدرك الأشياء من حولي، وتيقنت أن هناك سبب لبعد والدي عني، لكن لم أكن أدرك ماهيته بعد.

كان فقط يهتم بتدريباتي وتأهيلي لأصبح ولي العهد، كان يقسو عليَّ كل يوم ويجعل جميع مُعلِميني يقسون عليَّ بحجة أن أصبح أقوى وأكثر تحملًا، أُنهكت كل يوم وأنا أتعلم فنون القتال والحرب وأُصاب بجروح بالغة، تترك ندوب في روحي قبل جسدي، لم أجد أحدًا يستمع لأنيني الخافت في الليل، لم أجد شخصًا أشكو له عن أوجاعي، لم يكن مسموح لي أن أضعف حتى!

تأقلمت تعلمت إخفاء كل شيء إلى أن أصبحت هذا القاسي البارد الذي يحارب ويقتل في المعارك دون أن يرف له جفن.

صمت قليلًا يحدق بالفراغ ثم أضاف:

ـوزاد الأمر سوءًا حين ظهر لي هينري، أتى لينفرد بكل شيء بدون وجه حق، كان ولا زال يريد أن يظفر بما هو ليس له، ولكني لم أشقَ طوال هذه السنوات من أجل لا شيء، ولم أولد ولي العهد عبثًا، شعبي يحتاج لي، وأرواح الجميع على عاتقي، ولن أسلّم المجداف لمن لا يتقن الإبحار.

ـكونك بهذه القوة لا يمنعك من أن تُظهِر مشاعرك الحقيقية،

التأقلم مع هذا الوضع ودفن مشاعرك ليس الحل، جميعنا مررنا بتجارب قاسية منذ الصغر، الحل ألا تحجز نفسك في سجن الماضي، ما حدث قد مر وانتهى.

امح كل هذه الذكريات المؤلمة من قلبك قبل أن تمحوها من عقلك، أعلم أنك متعب، وأن الأمر يبدو وكأنه من المستحيل أن تتخطاه، أن تعيش عمرك كاملًا هكذا ليس بأمر بسيط، لكنك لا تملك خيارًا

آخر، عليك المضي قدمًا، عائلتك وبيئتك لم تكن باختيارك، ما حدث لك لم يكن باختيارك، لكن باستطاعتك أن تختار التغيير ولكي تفعل ذلك يجب عليكِ كسر حواجز الظلام الذي أنت غارق به، لكي ترى ضوء الشمس القريب منك.

ابتسم لي بضعف وأومأ، جايدن يخوض معركة حامية مع نفسه.

طال صمته وأصبح الوضع متوترًا، لذا ضربتُ كتفه بخفة، وقلت بصوت مرح أحاول أن أغير هذه الأجواء المشحونة:

_انهض چايدن، فالحياة قصيرة علينا أن نستمتع بها.

قهقه هو بخفة وقال:

_أرى أنكِ أصبحتِ تناديني بدون ألقاب؟

وقفت أتصنع الجدية وانحنيت له وقلت مازحة:

_أطلب العفو منك جلالة الأمير المُبجل، سامحني.

ثم ركضت أقهقه بصوتٍ عالٍ، التفت له لأجده يبتسم لي باتساع وركض خلفي:

فكرت في لحظتها أن خلف قسوته يوجد طفل صغير لم يأخذ حقه من الحياة بعد.

***

لقد أتى الشتاء مجددًا، مرت الأيام سريعًا وكلما مر يوم يزداد الخوف في قلبي، لم أجد حلًا يخرجني من ورطتي بعد، أجلس بقرب صخرة كبيرة وفي يدي قلادة القمر، ورطتي الكبرى!

الشمس قاربت على الغروب وشارف تدريب الجيش على الانتهاء، لقد اقترب موعد رحيلي من هنا، بعدما تأكد چايدن أني لست جاسوسة أو ما شابه، أخبرني أنه سيتركني أذهب، طلبت منه أن يجد لي عملًا في القصر بحكم نفوذه، لم يرفض طلبي، لكنه أخبرني أني سأبقى تحت المراقبة حتى وأنا هناك، لمَ هو قَلِق مِن ناحيتي لهذه الدرجة؟!

سمعت صوت سام ينادي عليَّ من أجل الطعام، لذا هرولت مسرعة، هم حازمون بشأن المواعيد وأوقات كل شيء!

أنهيت طعامي، وكدت أذهب لخيمتي، لكني تذكرت شيئًا.. أين القلادة؟!

يبدو لي أنها قد سقطت مني عند الصخرة، عدت مجددًا لنفس المكان لأخذ القلادة لكني لم أجدها بحثت عنها كثيرًا، ولكن بلا جدوى!، أين ذهبت؟ لقد كانت هنا!

التفت للخلف صدفةً، فإذ بي أجد چايدن واقفًا وتعابير وجهه لا تبشر بخير، لمحت القلادة في يده فوقع قلبي في معدتي، رفع حاجبه الأيسر ولوَّح بيده أمامي، ثم قال بنبرة دبت الرعب في قلبي:

_أتبحثين عن هذه؟!

الفصل السادس

(لقد جئتِ إليَّ في وقتٍ كان كل ما فيه من حولي مزيف وكنتِ أنتِ الصادقة الوحيدة)

چايدن:

انتهيت من تدريب الجنود وكم كان مرهقًا، لم أشعر بالرغبة في تناول الطعام؛ لذا تركت المائدة وذهبت أتجول قليلًا، لفت نظري بينما أسير شيئًا لامعًا على الأرض بالقرب من الصخرة الكبيرة، التقطته فكانت المفاجأة!

لا أصدق عيناي، إنها قلادة القمر الضائعة!

كيف هي هنا؟!

من المفترض أنها ضائعة من سنوات!

تزاحمت الأسئلة في عقلي، وأهمهم هو مع من كانت؟!

شردت بفكري لدقائق ثم اتضحت الصورة أمامي، شخصًا واحد بيننا هو بالتأكيد من يطمع بها إنه وبلا شك هينري!

لكن مهما زاد طمعه وحقده سيبقى مغفلًا، لابُد أنها وقعت منه وغفل عنها.

أخذتها وابتعدت قليلًا، أخطط بأن أنتظر هينري ليعود ويبحث عنها، مر وقت وأنا أنتظر هينري، لكني صعقت مما رأيت!

إيلينا اقتربت للصخرة وانحنت تنظر للأرض عن كثب وتلتفت يمينًا ويسارًا بينما تردد أين ذهبت!

اقتربت من خلفها بخطوات هادئة، التفتت لي ولم يُخف عليَّ ارتباكها عندما رأت القلادة في يدي:

_أتبحثين عن هذه؟!

ارتجفت بشدة وشحب وجهها ولم تنطق بحرف، كنت أود بشدة أن تنكر وتقول أنها لا تبحث عنها، ولكن صمتها أكد لي أنني خُدعت!

اقتربت منها بغضب، وأمسكتها من ياقة ملابسها، فذُعرت هي، ثم قُلت أمام وجهها بحدة:

_من أين لكِ بهذه؟ كيف حصلتِ عليها؟ من أنتِ في الحقيقة إيلينا؟!

صرخت في نهاية حديثي فأجفلت هي، وبدأت تزرف دموع التماسيح، ولم تنطق بشيء!

ابتعدت عنها أركل الحصى بجانبي، طعنة جديدة أتلقاها ومن إيلينا! الفتاة الوحيدة التي وثقت بها!

حدقت في عينيها وقلت بتأنيب:

_لقد جاهدت نفسي وتغاضيت عن مبادئي لأثق بكِ، لكنكِ كالباقين خائنة!

نظرت لي بانكسار وقالت من بين شهقاتها:

_أنا لم أخن ثقتكَ!

_اصمتي!، لن أصدق المزيد من أكاذيبك، قولي لي حالًا كيف حصلتِ على هذه القلادة، وإلا.. سأقتلكِ!

أخافني حديثي أكثر مما أخافها، وألمني قلبي أكثر منها، لمَ وضعكِ القدر بطريقي؟ لمَ تخذلني الحياة دائمًا؟!

إيلينا:

_سأقول لك، ولكن عدني بأن تصدقني.

_لن أعدكِ بشيء.

حدقت بي بأعين باكية فأشحت بوجهي بعيدًا عنها.. لا أريد أن أضعف لها!

إيلينا:

_هذه القلادة وُضعت في طريقي، أنا لم أبحث عنها ولم أسع خلفها، لقد وجدتها صدفة ومن يومها وأنا أعاني!، لقد قلبت حياتي رأسًا على عقب!

حياتي على المحك بسببها، وددت التخلص منها، ولكنها ملتصقة بي إلى أن تُبطل التعويذة.

_أي تعويذة؟!

_التعويذة التي وضعت عليها لتقتل كل من يحصل عليها بدون استحقاق!

صُدمت مما تقوله، ووقفت حائرًا، لا أعلم إن كان عليَّ تصديقها أم لا، جزء بداخلي يريد تصديقها وجزء آخر يحذرني من أن أُخدع بها،

لم أسمع من قبل عن تعويذة القلادة، ولكن أظن أنني أعرف من يقدر على إظهار صدقها أو كذبها:

_تقدمي أمامي، وإياكِ أن تفكري بالهرب.

اتجهت بها حيث باقي الجنود وناديت أحدهم وأمرته قائلًا:

_اجلب حبالًا الآن وكبل يداها.

أومأ لي وأتى بالحبال وكبلها، من بعيد رأى سام الوضع فأتى بلهفة قائلًا:

_چايدن، ماذا تفعل؟!

_ليس لديَّ وقت للشرح سام على الذهاب الآن.

_إلى أين؟!

_للمدينة.

لم أعطه المجال ليسأل مجددًا، حيث سحبتها وتوجهت بها لإحدى العربات، ركبنا بها لننطلق للمدينة، طوال الطريق لم أكلف نفسي عناء النظر إليها، لكنها لم تصمت:

_چايدن، استمع لي...

_جلالة الأمير!، هكذا تناديني.

_حسنًا، آسفة أنا فقط أردت أن...

_اصمتي لا أريد سماع شيئًا إلى أن نصل.

***

وصلنا لقلب العاصمة وقصدت منزل معلمي ويليام، أخذتها وتوجهت للباب وكالعادة وجدته شبه مفتوح، ناديت عليه:

_ معلمي، أنت هنا؟

آتاني صوته الحنون يغلفه الشيخوخة:

_چايدن صغيري، فلتدلف للداخل.

دلفت أنا والمقيدة بجانبي، لأبصر أمامي منزله البسيط الذي كان وما زال كما هو؛ ذو الأثاث الرث، بجانبه الخزانة القديمة التي تحوي كتبه ودفاتره، وهو جالس على نفس الأريكة بوجهه المسالم البشوش وكالعادة في حضنه كتاب يقرأه، ابتسمت للذكريات التي أتتني، ثم أشار لنا بالجلوس بجانبه وقال لنا:

_لقد مضى زمن منذ آخر مرة أتيت بها لهنا.

_صحيح، أنا آسف كنتُ مشغولًا للغاية.

_إذًا ما الذي أتى بكَ لهنا؟ ومن هذه الفتاة الَّتي معكَ؟

مددت يدي له وأريته القلادة وقلت:

_القلادة الضائعة!

ذُهل حينما رآها في يدي والتقطها مني وقال:

_تقصد المخفية.. من أين أتيت بها؟

تجاهلت ما قال بشأن أنها مخفية، وأشرت بعيني على إيلينا المرتجفة بجانبي وقُلت بسخط:

_لقد وجدتها مع هذه الفتاة، لا أعلم كيف سرقتها!

قهقه بصوتٍ عالٍ وقال من وسط ضحكاته:

ـ لا يمكن لأحد أن يسرقها چايدن.

ـإذًا ما هذا؟!

تجاهل حديثي ونظر لإيلينا بابتسامته المعتادة وتابع:

ـ لقد ظننت أني سأموت قبل أن تعود القلادة للمملكة!، قولي لي ابنتي ما حكايتكِ؟

لمْ تنطق إيلينا بحرف وظلت ترتجف، أشفقت عليها حقًا، لقد سببت لها رعبًا، حدقت بها بعينيي لتتحدث وأخيرًا نطقت بعد عناء:

ـاسمي إيلينا وأنا من أجارسيا، مملكة صغيرة بعيدة عن هنا تمامًا، ولدت في مدينة ريفية على حدود المملكة الشرقية، كنت وحيدة والديَّ، وحينما أتممت ربيعي العشرين ذهبت لعاصمة البلاد لكي أتلقى تعليمي هناك وأعمل، ابتعدت عن أهلي وعشت وحدي لأربع

سنوات، كنت أحب القراءة وأذهب لأجلس في مكتبة معلمي دائمًا وأقرأ، وفي يوم ما فتحت كتابًا لأقرأه ووجدت به هذه القلادة، أخذتها بفضول ورحت أسأل معلمي لكني لم أجده، كان أمام عيناي قبلها بدقائق.

قلقت عليه لأنه مريض، بحثت في أرجاء منزله، ورأيت بابًا نصفه مفتوح وخلفه ممر طويل مظلم، ظننت أن معلمي سيكون هناك؛ لذا دخلت الباب وسرت في الممر، كنت أرتجف وخطواتي تتسارع لأنتهي من هذا الممر، لكنه لم ينتهِ!

أخذت أتراجع للخلف لأصل لباب الدخول، لكني لم أجده.

شعرت بأنني في متاهة لن أخرج منها، أحسست بأنفاسي تتباطأ، كنت سأختنق!

أغمضت عينيي ولم أعِ بنفسي، سوى وسيدة عجوز توقظني لأفتح عيناي وأجد نفسي في مكان لا أعرفه.

معلم ويليام:

_هل معلمك هو السيد هدسون؟

قال معلمي اسم أحدهم فأومأت إيلينا بلهفة وقالت:

_نعم، نعم هو هل تعرفه؟!

معلم ويليام:

_أعرفه ابنتي أكملي ما حدث معكِ...

تابعت إيلينا الحديث، حكت لنا عن كل شيء حدث معها من بداية دخولها قصر سيران مرورًا على مملكة چوكتار إلى أن وصلت إلى هنا، هذا جنون!، إن لم أكن عالم بقوة مملكتنا الخفية وسحرها لكنتُ

كذبتها، بعد أن أنهت إيلينا حديثها نظرت لمعلمي وطلبت منه تفسيرًا، أومأ لي بهدوء وهو يلمس شعر لحيته كعادته ثم قال:

ـبما أن الأمر وصل لهنا سأخبركم بكل شيء؛ قبل بدء حرب المملكة مع الممالك المجاورة لاحظ جلالة الإمبراطور الأعظم حركة غريبة تجري في القصر والمملكة، كان يعلم أن الخونة كثيرون لكنه لم يعلم من هم تحديدًا، كان أعوانه المخلصون يتقصون له عن كل شيء وعلموا بأمر الخونة أصحاب وشم الثعبان، وعلم بخططهم للايطاح به، وعلى العكس المفترض أن يحدث وهو أن يكشفهم الإمبراطور ويقتلهم، صمت وقال لأعوانه أن يتركوا الأمور تأخذ مجراها!

صُدِم جميعًا من قراره، لكنهم خضعوا له وفعلوا ما أمرهم به، بعثوا لي ولآخرين في المملكة من حكام ومعلمين يثقون بهم، وجمعنا في سيران، وأعطانا مهلة لإيجاد طريقة لإخفاء القلادة أو بالأحرى قوة

المملكة الموجودة بها، ناقشنا الأمر كثيرًا إلى أن اتفقنا على التالي، تخفى القلادة مع شخص موثوق به وهو معلمكِ في مكان بعيد أشد البعد عن المملكة.. مملكتكِ إيلينا، أجارسيا مملكة صغيرة وضعيفة، ولم يكن ليتوقع أحد أن القلادة ستكون هناك، وضعنا تعويذة على القلادة، تؤذي أي شخص يفكر في استعمالها ضد قوانين معينة، ولحاجة المملكة للقلادة في الحروب لا يمكن إخفائها للأبد، ومثلما لكل تعويذة طريقة لإبطالها، هناك طريقة لإبطال تعويذة القلادة، لا أحد يستطيع فعل ذلك سوى من يحمل النقاء في قلبه والإخلاص للمملكة، شخص لا يعرفونه ويأبه بالسلطة ولا يطمع في الحكم، يظهر للملوك والخونة كشخص ضعيف فلا يشكون به، وتعهد معلمكِ أن يسلمها لهذا الشخص، ومن الواضح أن اختيار معلمكِ قد وقع عليكِ.

ثوانٍ من الصمت مرت، أنا وهي نحاول استيعاب ما يقوله لنا المعلم، ملامح الدهشة واضحة على وجهها وتساءلت:

_ماذا عن الوشم، كيف حصلتُ عليه؟ وكيف كنتُ في سيران ووجدت نفسي في چوكتار؟ كيف كنتُ مع إيما في العربة؟ ووجدت نفسي في معسكر الجيش هنا بدونها؟ وماذا حل بهم بعدما تركتهم؟

_الوشم هو جزء من تأثير التعويذة عليكِ، من الممكن أن يفيدك وربما أيضًا يضركِ، لذا لا تدعي شيئًا يتحكم بكِ، والقلادة هي مَن قادتكِ مِن سيران إلى چوكتار إلى هنا، من المفترض أن الأميرة لاحظت غيابكِ، وبالتأكيد إيما قد وصلت لمقرها بدونكِ كما لم تجدها معكِ هي لم تجدكِ، لقد افترقتما في الطريق.

أدمعت عينا إيلينا وهي تستمع لمعلمي ثم قالت بقهر:

_كيف فعل معلمي بي ذلك؟ كيف يُلقيني هكذا للهاوية؟!

ابتسم معلم ويليام بخفة وقال لها:

_أنتِ المختارة إيلينا.. إن لم يكن واثق من مقدرتكِ لم يكن ليضع القلادة في طريقكِ، عليكِ فقط أن تهدئي وتفكري في كيفية حل الأمور.

_لمَ عليَّ ذلك؟ لمَ عليَّ تحمل مسؤولية ما يحدث هنا، لا أريد ذلك.

_كل منا يولد بمسؤوليات لم يخترها، توضع في طريقه كاختبار يجب اجتيازه، التذمر والرفض لن يزيد الأمور سوى سوءًا.

لمَ عليها هي أن تفكر في حل الأمور بينما هو لديه الحل؟ تعجبت كثيرًا من حديثه فبادرت بالسؤال:

_معلمي، ألست تعلم طريقة لإبطال التعويذة؟ لمَ لا تساعدها؟!

_لا أستطيع مساعدتها، فقد حُرِّم علينا ذلك، لكني سأقول لها شيء يساعدها.

إيلينا:

_ما هو؟

نظر لها معلمي بتمعن ثم أردف:

_الحل لكل شيء موجود هنا، السر في أوكتراس، فهي نهاية رحلتكِ في الممالك الثلاث، وهنا في أوكتراس ستُبطل التعويذة، وبعدها سينتهي كل هذا وسيعود كل شيء كما كان، سوف تستطيعي العودة لبلادك بسلام، لا تستلمي نهائيًا، ابحثي خلف الخونة واكتشفي أسرارهم، وأكرر إياكِ والاستسلام.

***

خرجنا من عند معلمي وركبنا العربة مجددًا، طال الصمت قليلًا حتى استجمعت شجاعتي وقلت بصدق:

ـ أنا آسف إيلينا، لقد ظلمتكِ وقسوت عليكِ للغاية، غضبي من فكرة خداعكِ لي أعمى بصيرتي، أكرر أسفي لكِ مجددًا.

نفت برأسها وابتسمت قائلة:

ـ لا يهم چايدن، إن لم ترَ القلادة بحوزتي، لم أكن لأعرف الحقيقة ولم أكن لأعرف ما عليَّ فعله

أومأت بابتسامة لها وتساءلت مستفسرًا:

ـكيف استطعتِ الصمود إيلينا؟ كيف مررت بكل هذا ومازلت تبتسمين؟ كيف كانت الحياة هنا بالنسبة لكِ؟

_أن تحيا في عالم مختلف عنك، في وسط ناس لا يمطون لكَ بصلة، لا يشبهونك في أي شيء، أشبه بزهرة وحيدة تحارب لتنمو بين أشواك حادة، وأنا كنت أحارب لأعيش، هذا مصيري الذي لا أستطيع الفرار منه.

***

وصلنا للقصر الملكي وحين رأته تعجبت إيلينا وقالت لي:

_چايدن ماذا نفعل هنا؟

_الوقت تأخر إيلينا ولا يمكننا العودة للصحراء.

دلفنا للقصر من الباب الأمامي وبالطبع كل من رآنا قد دُهش، إنها المرة الأولى التي يرون بها أميرهم بصحبة فتاة!

أمرت الخادمات أن يدلوها على غرفة ستمكث بها لليلة وتوجهت أنا لجناحي لأستريح.. كان يومًا شاقًا طويلًا!

***

استحممت وغيرت ملابسي للروب الملكي واستلقيت على الفراش لأنام.. لكن لم يزرني النوم، كنتُ غارقًا في أفكاري التي كلها تتمحور حول إيلينا!

هل ستنجح في إبطال التعويذة؟ أم ستتأذى؟!

لا يمكنني حتى أن أتخيل هذا!

هي قوية وتحملت الكثير، لن يقف أمامها شيء.

سأساعدها وسأكون معها إلى أن تنتهي كل الصعاب، ولكن حتى وإن انتهت سترحل!، ستعود لبلادها وبالتأكيد ستحاول نسيان كل شيء حدث لها هنا!

عندما أتتني هذه الفكرة نهضت سريعًا، شعرت بالغضب والعجز لا أريد رحيلها ولن أدعها تهلك!

زفرت أنفاسي بضيق ووقفت في شرفة جناحي، نظرت للسماء ثم نظرت للأسفل فوجدتها في الحديقة وحدها، تركت جناحي وخرجت لها، كانت جالسة بالقرب من البحيرة تحت وميض السماء المرصعة بالنجوم، كانت شاردة ولم تشعر بوجودي، جلست بجانبها ونقرت كتفها فالتفتت لي:

_لِمَ لا زلتِ مستيقظة؟

عبست وعادت تنظر للبحيرة وتنهدت للمرة التي لا تُحصى لليوم وكأنها تحاول إخراج ما يُثقل قلبها ثم أجابتني بنبرة ضعيفة أشبه بالهمس:

_جالسة أفكر فيما سأفعل وماذا سيحدث، أشعر بالقلق والخوف، كأنني وقعتُ في مأزق لن أتخلص منه سوى بموتي.

حديثها آلم قلبي، فأنا خائف مثلها، لكن لم أرد أن أظهر لها قلقي، يكفيها ما هي به، وبكل قوة أمتلكها وبكل ثقة أحملها طمأنتها:

_لا تخافي، لن أدع الموت يعرف لكِ طريقًا.

حدقت بعينيي وابتسمت بوهن، هي على حافة الانهيار، ومازالت تبتسم:

ـ الموت ليس بأيدينا، عهدت نفسي أن أواجه بقوة وألا أضعف لكن ها أنا مضطربة ومشتتة، أنا كشخص يريد أن يجتاز نفق مُعتم للنهاية، ولكن ليس لديَّ ضوء يرشدني.

أمسكت يديها أضغط عليها برفق كمحاولة مني لنقل بعض الأمان لها، كمحاولة لجعلها تنسى مخاوفها وتثق بي:

ـأخبرتكِ لا تضطربي ولا تخافي، أنا معكِ، لن أتركِ تنجرفين للهاوية، فدعيني أكون ضوئكِ المُرشد إيلينا.

***

استيقظت اليوم التالي على طرق عنيف على باب جناحي، نهضت أفتح الباب وكدت أن أصرخ بالطارق، لكن كبل لساني سام الواقف على الباب يلتقط أنفاسه، ثم قال بلهفة:

ـ چايدن، الوضع متأزم بالخارج، لقد داهمتنا مجددًا جيوش من المملكة المجاورة، لقد اقتحموا العاصمة چايدن وأخذوا يعيذون في الشوارع والمنازل خرابًا!

شعرت بقلبي قد توقف عن النبض حينما أُلقي في وجهي هذا الحديث، عقلي قد تعطل عن العمل لدقائق، وقفت مصدومًا بلا حراك، إلى أن دفعني سام:

ـ أفيق چايدن أفيق المملكة في خطر!

اندفعت للداخل لأتجهز وأرتدي ملابسي الحربية وأمرت سام:

_اذهب واجمع كل الكتائب الموجودة بالعاصمة وارسل أيضًا للمدن القريبة، كثف الحراسة على القصر، وابعث بجنود للمنازل لحمايتهم.

يجب عليَّ أن أهدأ وأتماسك لكي أنقذ الموقف، طيلة حياتي كنت أتدرب خشية حدوث أي هجوم وها قد حدث، مهمة حماية الشعب على عاتقي، خرجت من الجناح واتجهت للأسفل لوالدي، دخلت عرشه وانحنيت وقلت مُتلهفًا:

_جلالة الملك، سأذهب أنا والجيش لنتصدى لهم، لن أدعهم يقتحمون القصر قبل أن يخطوا على جثتي.

أومأ لي بهدوء وقال:

_لقد اهتممت بتدريبك لهذه المهمة، اذهب واجلب معك النصر أيها الأمير...

انحنيت مجددًا وأخذت طريقي للبوابة الأمامية، قابلت العديد ممن بالقصر بخارج غرفهم وفي الحديقة، وجوههم جميعًا مذعورة!

بحثت بعيني عن إيلينا فوجدتها واقفة وحدها هناك قرب البوابة، لا تقل خوفًا عنهم لكنها تُمثِل الثبات، بتُ أحفظها عن ظهر قلب، فقد مر ما يقارب شهران منذ مجيئها ولم يكن بالوقت القليل، اقتربت منها وقلت بحزم:

_سأذهب الآن، لا تخرجي من القصر مهما حدث!

كدت أرحل لكنها أوقفتني بمسكها لذراعي وقالت بثقة:

_لن أبقى هنا سأذهب معكَ.

دفعت يدها بعيدًا عن ذراعي وصرخت:

_ليس لديَّ وقت للهراء إيلينا، ابقي هنا!

بخطوات فائقة السرعة همَّت بالخروج ومن خلفي سمعتها تصرخ:

_سأخرج جلالة الأمير.

تجاهلت حديثها فهي لن تستطيع الخروج، الحراسة مشددة بالخارج.

قدت الجيش حيث أماكن العدو، وفي طريقي جُلت بعيني لأبصر الوضع من حولي.

أشعر بقلبي تعتصره الحرقة وأنا أرى هذا المنظر الدميم، بحار من دم نساء وأولادهن، جثث أطفال رضع ملقاة بلا رحمة، لقد فتكوا بالجميع!

أشعر بالخزي، كنت أتمنى الموت قبل رؤية شعبي بهذا الشكل المذري، رؤيتهم هكذا جعل الغضب يشتعل بداخلي، صرخت بالجيش أحمسهم، وذهبنا لردع العدو، لم يكن عددهم كبيرًا ولكنهم أشداء،

وجوهم خبيثة وهيئتهم مُخيفة، يظنون أنهم يستطيعون هزيمتنا بهيئتهم هذه ولكن هيهات، فلا ينتصر محتل للأرض أبدًا حتى وإن طال زمن المعارك!

تصادمنا معًا في معركة حامية، حاولنا ردعهم لكنهم كالفئران كلما نقترب منهم يهربون ويذهبون ليختبئوا، تواجهنا في أكثر من مكان وفي كل مرة نقضي على مجموعة منهم، كانت المعركة على مشارف الانتهاء بعد عراك قاتل بين الجيشين دام لساعات، لقد هلكنا وفقدنا الكثير من الضحايا، ولكن النصر لنا في النهاية، كنت أحارب قائدهم المبعوث بالسيف، كنت منتصرًا عليه بالبداية، ولكنه باغتني بطعنة في كتفي جعلت دمائي تسيل، تألمت كثيرًا لكني لم أهتم.

كنت أصارع باستماته وأشعر أنني على حافة الموت، دمائي تنهمر من كتفي المصاب وما زلت أحاول الصمود، أسقطت هذا القائد أرضًا، لقد انتهت المعركة!

قدت جوادي بينما أضغط على جرحي لعل الدماء تنقطع، ذهبت لقلب العاصمة وجيشي خلفي لأبحث عمن تبقت بهم الروح، بينما أبحث رأيت على مرمى بصري فتاة واقعة على الأرض وسط الدماء، تسرب الخوف لجسدي وشعرت بأطرافي ترتعش، أخشى حدوث ما أفكر به، نزلت من على جوادي وانطلقت أجري أسابق الزمن، إنها هي!، إيلينا كانت ملقاة غارقة في دمائها، تصلبتُ مكاني ولم أستطع الحراك قيد أنملة، نفيت برأسي بقوة وأنا أشعر بخفقات قلبي تتعاظم وكأنه على وشك الانفجار، عيناي تنقلان لي مشهد واقعي ولكن ينفر منه عقلي بقوة، لا يمكنها ترك كل شيء هكذا ببساطة، إنها قوية،

حاولت استيعاب ما أرَى وهرعت إليها، دنيتُ منها خائفًا، لأرَى نبض يدها ثم زفرت بارتياح لم أشعر به في حياتي من قبل، إنها حيّة!

قلبها ما زال ينبض وما زالت تتنفس الهواء!

حملتها بين يدي ووضعتها على جوادي وامتطيته وانطلقت بها، كل دقيقة أنظر إليها وأتأكد من تنفسها، وصلت بها لباب القصر وحملتها وركضت بها للداخل، ذهبت لغرفتها ووضعتها وأمرت خادمة بأن تخبر الطبيب الملكي بأن يأتي حالًا، هي ليست من العائلة الملكية ولكنها معي، أتى الطبيب بعد عدة دقائق وكان سيعالجني أنا أولًا ولكني أمرته أن يبدأ بها فوافق على مضض وشرع يعالجها، لم أتمالك أعصابي حينما أخبرني أن حالتها خطيرة، أمسكت ياقة رداءه وقلت في وجهه بحدة:

_افعل ما بوسعك لتعيش، هي لن تموت!

صرخت في نهاية حديثي مما جعله يجفل، أومأ عدة مرات بخوف وتركته لأذهب وأنا بكامل غضبي لحراس القصر، توجهت إليهم وصرخت بهم:

_ألم أمركم بأن تشددوا الحراسة على القصر؟!

انحنوا جميعًا بخوف وقال أحدهم:

_مولاي لم يدخل أو يخرج أحد سوى تلك الفتاة التي أتت مع جلالتك قالت أنك أعطتها الإذن لتخرج.

_أغبياء!

بعد أن صرخت بهم ركلت الهواء أمامي بغيظ وتوجهت لغرفتها مجددًا بينما أتمتم بكم هي مجنونة، عدت أسأل الطبيب مجددًا وقال لي أنه فعل ما بوسعه لإنقاذها وأن الأمر سيستغرق وقتًا طويلًا لتفيق،

ضمد جرحي أنا أيضًا ثم رحل، وأنا جلست بالقرب من فراشها، أتمعن وجهها الشاحب والمنهك، لمَ قد فعلت هذا؟ لمَ هي عنيدة هكذا؟ لقد أمرتها بالبقاء هنا!

ألقتُ نظرة أخيرة عليها وخرجت، أنا مضطر لتركها لديَّ عمل، ذهبت لمقابلة باقي القواد لمناقشة أمر هذا الهجوم معًا، وضعنا خطط تحسبًا لأي هجوم مفاجأ آخر، وحسبنا عدد الضحايا من جيشنا، انتهيت معهم لأتجه مع سام للاجتماع ببعض الوزراء، أمرتهم بالاهتمام بأمر الضحايا من الشعب والأسر المتضررين مما حدث، انتهيت من كل شيء وخرجت من الاجتماع واتجهت لأجلس بجانب البحيرة.

إيلينا، لا أريدك أن تذهبي بعيدًا، ومع ضرورة رحيلكِ عن هنا بات بقائكِ بجانبي أمرًا أشبه بالمستحيل، لقد جئتِ إليَّ في وقتٍ كان كل

ما فيه من حولي مزيف وكنتِ أنتِ الصادقة الوحيدة، وأتساءل لمَ وضعكِ القدر بطريقي إن كنتِ ستتركينني!

أفاقني من شرودي سام الذي أتى وجلس بجانبي:

_متى أتيت؟ لم أشعر بك.

_منذ أن غرقت في عالمكَ الخاص، أخبرني بماذا تفكر؟

تنهدت بثقل وحدقت بالبحيرة أمامي وأردفت:

_ أفكر بأمور كثيرة!، سام.. أتتذكر الماضي؟

عندما كنا صغارًا، كنا نأتي لهنا باستمرار، ونركض حول البحيرة، مجرد أطفال بلا هموم أو مسؤوليات، لكن مضى وقت اللهو، وتحولت كل ذكرياتنا الجيدة لرماد، استيقظنا على حلم سيء، عالم مليء

بالصعاب، مليء بالألم، مليء بالخيانة والغدر، والطعن من الأقرب لنا!

_الوقت فقط هو ما قد مضى، ليست كل الذكريات تتحول لرماد، هناك ما يبقى ساطعًا للأبد.

صمتنا لثواني ثم تابع:

_لكن هل هذا فقط ما يشغلك؟ لا أظن ذلك!

أخبرتك مئات المرات يا صديقي أنني هنا بجانبك، أستمع لشكواك حتى وإن لم تقلها فأنا أستطيع رؤيتها بعينيك، كتفي سيتحمل همومك، لذا أخبرني فقط بثقل شعورك.

_شعور سيء يراودني يا صديقي، أخشى ما يخفيه القدر لي، وأخشى فقدانها، لقد تاهت عن عيني لساعات وانظر ما قد حل بها!

_تقصد إيلينا، أتحبها چايدن؟

_أظن ذلك...

ابتسم سام باتساع وقال بلهفة:

_حقًا!، لم أتخيل يومًا أنه سيأتي مَن يوقع بالأمير البارد!

إذًا.. ألن تعترف لها؟

_ما الفائدة من الاعتراف وهي سترحل؟

_ ربما لن ترحل، إن قبلت مشاعرك لن ترحل.

_عاجلًا أم أجلًا سترحل، هي ليست من أوكتراس، وستعود قريبًا من حيث أتت.

_لكن...

كاد سام أن يتحدث لكن قاطعه مجيء حارس من بعيد وهو يركض، وقف أمامنا وأخذ يلهث ثم قال من وسط أنفاسه المتقاطعة:

_جلالة الأمير، لقد أتى مبعوث من جنود الحدود يخبرونا بأن جيش ضخم من المملكة المجاورة آتٍ.

انتفضنا واقفين وقال سام:

_لقد أتوا لينتقموا لهزيمتهم، هذه المرة لن تمر على خير!

_لقد استعددنا جيدًا لذلك.

سام، ارسل مبعوثًا لأرثر في سيران أخبره بأن يأتي بجيشه لهنا، وارسل آخرًا لچوكتار، ستندلع حربًا كبيرة مجددًا!

الفصل السابع والأخير

(كثرة الأطماع جعلت إراقة الحروب أسهل من حفظ السلام)

إيلينا...

فتحت أعيني أنظر إلى سقف الغرفة، داهمني ألم حاد في رأسي جعلني آن بخفوت، فاقتربت مني فتاة ترتدي ملابس الخادمات وسألتني:

_استيقظتِ!، هل أنتِ بخير؟

سندت جسدي بذارعي على السرير لأرفعه وأردفت بصوت يكاد يُسمع:

_منذ متى وأنا هنا؟

_منذ أسبوعين، أتى بكِ الأمير وأمرنا أن نعتني بكِ.

إذًا چايدن هو من أنقذني!، بعدما خرج من القصر انطلقت خلفه ومعي القلادة، شعرت أنه يمكنني المساعدة بالقلادة؛ لذلك لم أتردد وخرجت للمدينة، كنت أتفقد الشوارع تائهة حتى أتى شخص من

بعيد وأصابني بسهم اخترق جسدي، ولم أدرك شيئًا بعد هذا سوى الظلام، وها أنا هنا بعد أن أنقذني الأمير كما قالت الخادمة.

ناديتها قبل أن تذهب وقلت:

_ألا تعلمين أين هو الأمير؟

_الأمير ليس هنا، هو مع الجيش استعدادًا للحرب.

_حرب!، أي حرب؟!

_ستندلع حربًا بين الممالك الثلاث والممالك المجاورة مجددًا.

أنهت كلامها باحباط وخرجت، حربًا أخرى ستندلع!

بالتأكيد سيحتاجون قوة القلادة!

عندما أدركت هذا نهضت وركضت للأسفل متجاهلة الألم الشديد بي، يجب أن أفعل شيئًا، يجب أن أبطل التعويذة، بحثت عن أي

شخص أعرفه في أرجاء القصر ولحسن الحظ وجدت سام.. ناديت عليه فالتفت لي ودُهش:

_إيلينا، متى استيقظتِ؟

اقتربت له وقلت بلهفة:

_لا يهم الآن، أريد الذهاب إلى المعسكر أشيائي هناك.

_هذا ليس الوقت لأخذها، كتائب الجيش هناك والحرب على وشك الاشتعال!

_أرجوك، هذا ضروري.

قطب حاجبيه ونفى برأسه فتابعت:

_استمع لي سام، هذا شيئًا للمملكة يجب أن أذهب إلى هناك!

تنهد بقلة حيلة وقال:

_حسنًا، لكن ستعودين قبل بدء الحرب.

أومأت له فأخذني لهناك، كان مخيم التدريب مكتظًا بالجنود عكس ما تركته، أبصر وجوه لم أرها من قبل، التفت برأسي أبحث عن چايدن، وفجأة نادني صوت لم أسمعه منذ مدة:

_إيلينا.. أنتِ هنا!

_ليام.. ماذا تفعل هنا؟!

صدمت للغاية واقتربت له وهو جاوبني:

_أنا قائد حربي، أنسيتِ؟ أنتِ ماذا تفعلين هنا؟!

لقد بحثنا عنكِ كثيرًا!، إيما قالت أنك اختفيتِ من العربة.

إنها قصة طويلة ليام...

قاطع حديثي مع ليام صوت چايدن المرتفع الآتي من خلفنا استدرت له وهو وقف أمامنا وقال بنبرة قلقة:

_متى استيقظتِ؟ وكيف أتيتِ إلى هنا؟ وماذا تفعلين مع هذا؟!

أشار في نهاية حديثه إلى ليام فسحبت ذراعه وقدته بعيدًا وأنا أقول لليام:

_عذرًا ليام يجب عليَّ الذهاب الآن سأخبركَ بكل شيء لاحقًا.

_حسنًا إيلينا.

لوَّح لي ورحل وأنا وقفت مع چايدن وأجبته:

_لقد استيقظت اليوم وطلبت من سام أن يأتي بي إلى هنا، ومن كنت واقفة معه هو صديق تعرفت عليه في چوكتار.

قطب حاجبيه وأردف بغضب طفيف:

_إيلينا هل أنتِ حمقاء؟ ستشتعل الحرب لا مكان للنساء هنا، وأيضًا أنتِ ما زلتِ مصابة!

_چايدن القلادة معي، يجب عليَّ إبطال التعويذة في أسرع وقت!

_وكيف ستفعلين هذا هنا؟

_اعطني أشيائي التي أتيت بها للمعسكر وسأحاول حل هذا اللغز المعقد، چايدن وجودي لابُد منه هنا!

أومأ لي بنفاذ صبر ورفع سبابته في وجهي وقال:

_لكن حينما يقترب وقت المعركة سترحلين من هنا؟

_لا أعدك بهذا.

_كم أنتِ عنيدة!

قادني لخيمته الكبيرة ودخلناها وهناك كان يحتفظ بأشيائي، أعطاني إياها وقال:

_ابقي هنا وأنا سأمكث بالخارج، حاولي ألا تظهري كثيرًا أمام الجنود، وإن احتجتِ شيئًا نادني.

_حسنًا.

رحل من الخيمة وأنا جلست وبجانبي كتاب الإمبراطور وصندوق چاك وتمتمت:

_عليَّ أن أجد طريقة لإبطال التعويذة والآن!

فتحت الكتاب أولًا وقرأت به:

"التاريخ سيعيد نفسه، وإن لم يمسك أحد زمام الأمور، ستنهار الإمبراطورية العظمى".

ماذا يعني بأن التاريخ سيعيد نفسه؟ وماذا كان يقصد بإنهاء الأمر بالدم؟!

قلبت الصفحة وقرأت فيما بعدها:

"سأجعله يتجرع الألم كما فعل بي وكما خذلني وخيب ظني به، سيخيب ظنه حينما يرى كل ما عاش يصنعه من شر ينقلب عليه، لم ولن أسلم مملكتي لخائن".

من هذا الذي يتحدث عنه؟!

"إن استطعت معرفة من هو سأكون قد وصلت لنصف الحقيقة".

أغلقت الكتاب وفتحت صندوق چاك أتفحص ما بداخله، استغرقت ساعات لأقرأ جميع ما بداخله، ولكن بلا نفع!

لم أجد شيئًا واحدًا يساعدني، شعرت بالاختناق ولم أقوَ على التنفس، لذا خرجت من الخيمة قليلًا، كان الوضع هادئًا والجنود ليسوا في الجوار، وقفت بجانب الخيمة أطالع السماء، لمَ؟ لمَ يحدث معي أنا كل هذا؟، لمَ اختارني المعلم لهذه المهمة المستحيلة؟ أنا أضعف، من هذا، أنا لست حتى من هنا ما دخلي بهذه الممالك؟!

منذ أن كنتُ في سيران وأنا أبحث وأجازف وأغامر، لكن لقد طفح الكيل!

شعرت بدموعي العالقة في عينيي تنذر بالسقوط، وأنا أجاهد كي لا تسقط، صمدت إلى أن أتى چايدن وربت على كتفي وسألني..

_أأنتِ بخير؟

وكأن دموعي كانت تنتظر هذه اللحظة لتنهمر محملة بالأسى واليأس، سقطت تحمل كل مشاعري التي لم أبُح بها منذ رحيلي عن بلادي، بكيت بحُرقة ومن بين شهقاتي قالت:

_أتعلم.. كنت أحارب لهذه اللحظة لأستطيع النجاة، لكن الآن كل ما أطلبه أن أرحل فقط!، أن يأخذني الموت لينتهي كل هذا!

لا أملك طاقة للمقاومة، سئمت هذا الوضع، لم يعد هناك أمل، ولا أظن أني سأخرج من هذه الدوامة.

حدق بي طويلًا ثم نظر للسماء وعلى وجهه ابتسامة هادئة:

_انظري للسماء أترين الشمس؟ لا، لأنها تغيب في الليل وتترك المكان مظلمًا، ولكن نحن على يقين ما دام هناك حياة فالشمس موجودة ستغيب ولكنها ستشرق مجددًا.

وما دمتِ أنتِ حية فالأمل موجود، حتى وأن شعرتِ يومًا أنكِ فقدتيه، كوني على يقين أن أملكِ المشرق سيعود لكِ مجددًا، الأمل لا ينتهي هو فقط مختبئ خلف يأسكِ وما دمتِ تتنفسين الهواء عليكِ المحاربة، في الحياة ستخوضين معارك ضخمة وإما أن تخرجي منها منتصرة بفرصة لبدأ حياة جديدة أو منهزمة بنهاية بائسة.

***

في اليوم التالي كنت جالسة بعيدًا عن مكان تدريب الجنود وآتاني ليام وجلس بجانبي:

_كيف حالكِ إيلينا؟

_لست بخير بتاتًا.

أومأ لي وقال بهدوء:

_كلنا لسنا بخير، الأمير أرثر لم يصل بجيشه بعد نحن قادمون على حرب إما أن ننتصر بها أو تُسلب منا بلادنا، أشعر أننا سنسلم لهم على طبق من ذهب بعد ما فعله الخونة.

_ماذا تقصد؟ ماذا فعلوا مجددًا؟

_لقد خاننا الخونة أصحاب وشم الثعبان مجددًا، لقد انضموا للممالك المجاورة، وزادوهم قوة بالمعلومات التي يمتلكونها عنا.

_كيف علمت بكل هذا؟!

_من خططهم المكتوبة في الأوراق التي أحضرتِها لنا، لقد جئت لهنا لأخبر باقي القواد!

_أخبرني ماذا كُتب بهذه الأوراق؟

تعجب ليام من رغبتي الملحة في معرفة ما بالأوراق لكنه جاوبني:

_لقد خططوا لكل شيء من البداية، منذ قتل الإمبراطور الأعظم بالخنجر الملكي على يد أحد أقرب أعوانه، والخنجر مختفي وما زالوا يبحثون عنه، وهم مَن ساعدوا المملكة المجاورة لأوكتراس على الهجوم الأخير، مستغلين ضعف أوكتراس لصغر جيشها.

_هل أخبرت الأمير چايدن بهذا الأمر؟

_لا لم تحن الفرصة بعد.

نهضت سريعًا وسحبته معي وقلت:

_علينا إخباره الآن.

سحبته لمنطقة تدريب الجنود، ورأيتهم مصطفين وفي الأمام يقف چايدن مقابلًا لهم، ناديت عليه بصوتٍ عالٍ فنظر لي الجميع بذهول ومن بينهم هو، أشرت له بالمجيء فأتي وهو محرج وقال بحدة:

_ماذا تفعلين هنا؟ ألم أقل لكِ ألا تظهري أمام الجنود.

_الأمر ضروري چايدن لدينا ما نخبركَ به.

أشرت في نهاية حديثي لي ولليام وطلبت من ليام أن يتحدث، قال ليام كل ما في جعبته، بينما صُعق چايدن مما سمع، وضع كلتا يديه على وجهه وتمتم:

_ماذا سأفعل الآن؟ ماذا سأفعل؟!

_عليكم الاستعداد چايدن ستكون الحرب خطرة، وأنا...

كدت أتحدث لكن صهيل حصان مُقترب أوقفني، كان على ظهره رجل شاب وحين وصل إلينا توقف.. ونزل من على الحصان بسرعة وقال بتوتر:

_جلالة الأمير، جيش العدو على بُعد أميال قليلة من هنا، عددهم ضخم ويمتلكون الكثير من الأسلحة، المعركة ستبدأ!

أصابني الذعر من حديثه ونظرت لچايدن الذي نظر لي بأعين فارغة وقال بحزم:

_سترحلين الآن، اجمعي أشيائكِ واذهبي للقصر وابقي به.

نفيت برأسي وأردفت:

_لا!، لن أذهب يجب أن أكون هنا ربما تحتاجون للقلادة.

تبدلت ملامحه لأخرى غاضبة وصرخ بي:

_ليس لديَّ وقت لعنادكِ إيلينا!، سترحلين الآن!

كنت سأعترض مجددًا لولا ليام الذي سحبني بقوة وهو يهمس لي:

_ستتأذين إن بقيتِ هنا، هيا...

جمعت أشيائي من خيمته وخرجت منها، كان هناك جندي ينتظرني بحصان، أخبرني أن الأمير أمره بأن يوصلني للقصر، ركبت معه بطاعة فلا فائدة من الاعتراض!

***

جالسة في هذه الغرفة بالقصر وفي يدي الكتاب، أريد فقط معرفة أين هو الخنجر السحري، أظن أن الحل به.

فتحت الكتاب مجددًا وشرعت أقرأ ما به إلى أن قرأت شيئًا غريبًا:

"سيران.. چوكتار.. أوكتراس، القوة مخبأة في قلب الممالك"

حديثه مليء بالألغاز، شردت أفكر في جملته وماذا يقصد بها وتذكرت حديث المعلم ويليام حينما قال إن السر في أوكتراس أغلقت الكتاب، وفتحت صندوق چاك مجددًا، هذه المرة أبحث عن شيئًا محدد، مكان الخنجر، أشعر أنني سأعرف مكانه من هذه الأوراق، قرأتها بعناية مجددًا إلى أن وصلت إلى ما أريده وقرأت بصوت منخفض:

_هناك بأوكتراس تحت الأرض بجانب البحيرة.

أظن أنني علمت أين يجب أن أبحث، وضعت الأوراق مجددًا بالصندوق وقمت سريعًا وخرجت من الغرفة، كان الليل قد حل وهذا أفضل لي لكي لا يراني أحدهم، ذهبت لأحضر أداة حفر أولًا ثم ذهبت للحديقة، دُرت حول البحيرة مرتين حائرة أين يجب أن أحفر؟، دُرت مجددًا وفي بقعة ما شعرت بالأرض تنخفض أسفلي، والقلادة في رقبتي توهجت بضوء خافت، الخنجر بالتأكيد هنا، جلست أرضًا وبدأت أحفر قليلًا إلى أن ارتطمت أداة الحفر بشيء أحدث صوتًا، كان عبارة عن لوح خشبي رفعته ببطء وظهر لي سلالم كالسلالم التي كانت بقصر سيران القديم، تذكري لهذه الأحداث جعلتني خائفة ومترددة في النزول ولكن لا مكان للخوف الآن، الحرب مشتعلة، نزلت لأسفل وكان المكان صغيرًا خانقًا وأيضًا مظلمًا، لا ينيره سوى ضوء القمر الآتي من الخارج وضوء القلادة التي تزداد توهجها، بحثت به إلى أن عثرت على صندوق صغير مغلق،

كان قفل الصندوق دائري، نظرت للقلادة المتوهجة وجربت أن أضعها به، وفُتح الصندوق، الخنجر!

إنه بالداخل بالفعل، يبدو مميزًا عن باقي الخناجر التي رأيتها من قبل، أخذته وخبأته بملابسي وصعدت للأعلى، وضعت اللوح وردمته كما كان.

الآن معي الخنجر الملكي، لكني ما زلت لا أعلم ما هي الطريقة التي سأستخدمه بها لأبطل التعويذة، عليَّ العودة للمعسكر، حتى وإن كانت قد بدأت الحرب يجب أن أذهب لچايدن وأعطيه إياه، لكن الليل حالك ولن أستطيع الذهاب الآن سأنتظر للغد.

***

مع ظهور الخطوط الأولى لأشعة الشمس كنتُ قد استيقظت، خرجت من غرفتي لأبحث عن طريقة للذهاب لأرض المعركة، وفي الممر المقابل لغرفتي وجدت العديد من الخادمات يهمسن في أمر ما، اقتربت لهم والتقطت أذناي حديث أحداهن:

_يُقال أنَ جيشنا في حالة مزرية، لقد قتل العدو معظمهم وأخذوا منهم أسرى، الملك سيرسل لهم تعزيزات.

صُعقت مما سمعته وركضت لهم وقلت بلهفة:

_أي تعزيزات تقصدين؟ أخبريني سريعًا!

جميعهن تعجبن من طريقتي وصمتوا لثواني إلى أن نطقت إحداهن:

_الملك سيرسل تعزيزات من الجنود والأسلحة للجيش في أرض المعركة، يقال أنَ الجنود سينطلقون في العربات الحربية من هنا بعد قليل.

تركتهم وركضت للأسفل لأبحث عن الجنود لأرحل معهم، كان الباب الأمامي للقصر مفتوح ومن خلفه تظهر العربات والجنود، اتجهت للباب لأخرج لهم لكن أوقفني الحارس:

_إلى أين أنتِ ذاهبة؟!

_سأذهب لمنزل والدي في المدينة.

_الوضع غير آمن في الخارج، الأمير منعنا من خروجكِ.

_المنزل قريب، لن أبتعد عن المدينة.

نظر لي بشكٍ، ولكنه أومأ لي مصدقًا كذبتي، سمح لي بالخروج ثم أغلق باب القصر، تسللت في خوف لإحدى العربات التي كانت تحمل الأسلحة لا الجنود، ركبت في الخلف وحاولت الاختباء قدر الإمكان، شعرت بعد برهة أن العربة تتحرك، طوال الطريق وأنا خائفة أن يكتشفني أحدهم، توقفت حركة العربة فعلمت أننا وصلنا، تحركت ببطء لأرتجل من العربة قبل أن يراني أحد، نظرت من حولي ولم أصدق ما تراه عيناي!

ما هذا الدمار؟!

جثث الجنود ملقاة في أنحاء متفرقة، لقد تزينت رمال الصحراء بأشلاء رجال أوكتراس چوكتار المبعثرة بشكل مخيف، بحار من دماء الجنود تحت قدمي، لقد فتك العدو بالجيش! كيف استطاعوا فعل هذا بهم؟!

تجمعت الدموع بعيني من هذا المنظر المؤلم، ما الفائدة التي ستعود عليهم من شن حروب كثيرة على أراضي غيرهم؟

كثرة الأطماع جعلت "إراقة الدماء أسهل من حفظ السلام!"

سيختفي السلام من قلوب أهالي الجنود عندما يعلمون بموتهم

انتشر من جنود التعزيزات من حولي وانتبهوا لوجودي، لكني لم أبه بهم وركضت ابحث عن چايدن، أخشى أن يكون قد أصابه سوء، نظرت لجثث الجنود الملقاة ورأيت منظرًا دب الرعب بي!

ليام ملقى على الأرض غارقًا في بحر دمائه!

اقتربت له وجثيت على ركبتي أتفقده، تنفسه ضعيف للغاية وجهه شاحب، حدقت بعينيه المفتوحة وهمست:

_ليام، إنها أنا إيلينا، اصمد قليلًا سأنقذكَ.

نفى برأسه بحركة بسيطة وهمس بصوت ضعيف:

_ماذا تفعلين هنا، لا يمكن أن تكوني هنا.

_جئت للبحث عن جايدن لديَّ شيئًا مهمًا.

_أخذوه...

_أين أخذوه؟

أشار لي بأصبعه وقال بنبرة متقطعة:

_في الكهف.

أومأت له واستقمت ثم ناديت أحد الجنود القريبين ليعتني بليام واتجهت للكهف سريعًا.

ضربات قلبي تتزايد وأشعر بأنفاسي تُسلَب مني، اقتحمت الكهف بتوتر لأبصر ما كنتُ أخشاه.

چايدن جاثٍ على ركبتيه مخفض رأسه ويديه مكبلة خلف ظهره، بجانبه أرى ظهر رجل ووجهه للجهة الأخرى، لا أستطيع رؤية ملامحه لكن بنية جسده مألوفة لي، رفع چايدن وجهه وحدق بي وهمس بخيبة:

_ألم أقل لكِ ألا تأتي؟!

استدار الرجل الذي بجانبه وعندما أبصرت وجهه أخذتني الصدمة لأحدق به، بنفس الابتسامة الساخرة والوجه الكريه يقف هذا العجوز ريان أمامي، فتح أذرعه وأردف بسخرية:

_مرحبًا بالمنقذة إيلينا، لقد كنتُ أنتظركِ!

اقترب لي وأخذ يدور من حولي كالثعبان، هو لا يختلف عنه في شيء:

_لقد فعلتِ لي كل ما أحتاجه وقدمتيه على طبق من ذهب.

التزمت الصمت بينما أطرافي ترتعش من قربه المخيف، حدق بي بأعينه المرعبة وبدأ حديثه السام قائلًا:

_إذًا لقد أتيتِ لهنا بثقة ومعكِ الخنجر والقلادة.. يا لكِ من حمقاء!، لقد وقعتي في فخي بسهولة، كم أشفق عليكِ!

أنا أقف أمام قاتل الإمبراطور، أقدامي بالكاد تتحملني، أنظر له بحقد أحاول أن أخفي الرعب بقلبي، ولكن ارتعاش جسدي يفضحني، قهقه هو بخفة وقال:

_إن كنتِ أذكي قليلًا، كنتِ قد أدركتِ أن كل شيء بيدي منذ البداية، أنسيتي الوشم إيلينا؟!

مع نهاية حديثه شعرت بألم مفاجأ في جسدي وخاصة ذراعي، ازداد الألم تدريجيًا فركعت على الأرض أصرخ وأتلوى، ووصل لمسامعي صوت جايدن المنادي لي بنبرة قلقة، ظل الألم لدقائق ثم اختفى فجأة

ورفعت نظري لهم أبتسم بخبث، جسدي يتحرك بدون وعي مني وكأن أحدهم يلقي الأوامر عليه، بدون أن أدرك كنتُ قد أخرجت الخنجر من جيب ملابسي!

كنت بالفعل واثقة مما أفعل، لكن لم يخطر على بالي أنه يستطيع التحكم بي عن طريق الوشم، جسدي يتحرك رغمًا عني، يخطو خطوات بدون إراداتي، عاد ريان ليقف بجانب چايدن وضغط على كتفه بقوة ليأنّ متألمًا، نظر لي ريان وأردف بخبث:

_أنتِ الآن تحت رحمتي، وكما قتلتُ الإمبراطور ستقتلين حفيده!

أمامكِ خيارين إن قاتلتيه سينتهي أمر هذه القلادة للأبد وحينئذ سأساعدك بالعودة لموطنك، وإن رفضتِ فنهايتكِ على يدي!

اختاري إيلينا إما النعيم معي، أو سأحرقكِ بجحيمي.

حدقت بچايدن المقيد أمامي مسلوب القوة، نظرة عينيه لي تحوي الانكسار أكثر من الخوف، وكأنه يعاتبني بصمت، جسدي وقلبي في صراع داخلي، أغمضت عينيي وفتحتهما مجددًا أحدق بچايدن، ظهرت على شفتي ابتسامة جانبية وتمتمت ببرود قاتل:

_سأختار النعيم بالطبع.

اقتربت بخطوات بطيئة لچايدن، وأشهرت بالخنجر في وجهه، نظرة عينيه الفارغة تعذبني، اهتزت يداي الممسكة بالخنجر، لا أريد أن أتراجع، استعددت لمَ سأفعل ثم بحركة سريعة حولت اتجاه الخنجر من چايدن إلى ريان وداهمته به، غرزته في صدره فصرخ متألمًا، نظر لي متفاجأ ونفى برأسه وقال بحدة:

_لا! لا يمكنكِ!

مد يده لينتزع الخنجر، ولكن لم يقوَ على ذلك، حاول كثيرًا لكن الخنجر ملتصق به بشكل عجيب، أخذ يلتقط أنفاسه الأخيرة، وإذ بزلزلة عظيمة قد حدثت، جعلتنا نتدحرج في الكهف، ظهر ضوء قوي من الخنجر وتوهجت القلادة، أغلقت عيناي من شده الضوء الذي كاد يعميني، دقائق حتى عادت الأرض لسكونها من تحتنا، فتحت عيني وكان الضوء قد اختفى، نظرت لجسد ريان الساكن بجانبي، لقد مات!، مات ومات شره معه، حولت عيني لچايدن الملقي على جانبه، اقتربت له بحذر وفككت قيده، أقمت جزعه ورفعت وجهه لي وقلت:

_ أظننت للحظة أنني من الممكن أن أضحي بك؟!

ابتسم لي بوهن وهمس بنبرة ضعيفة:

_اعطني القلادة إيلينا.

_ماذا ستفعل بها؟!

_سترين!

أعطيته القلادة فاستقام هو، أخذ بيدي وخرجنا من الكهف وفي الخارج كان الجنود قد اشتبكوا مجددًا مع العدو، ولكن لقد زاد عدد الجنود بشكل ملحوظ، حدقت بهم لألحظ الأمير أرثر، يبدو أنه وصل أخيرًا بجيشه، التفتت لچايدن وقلت:

_ماذا ستفعل؟

حدق بي لثواني وقال:

_ابتعدي عن هنا وقفي بعيدًا عن محيط المعركة.

أطعته ووقفت بعيدًا أشاهدهم من داخل الكهف، رأيته من بعيد ينظر أمامه ويرتدى القلادة، تمتم بكلمات لم أسمعها وفي نهاية حديثه صرخ بصوت جهور:

_فلتتحرر قوة إمبراطورية سيران العظمى.

توهجت القلادة بشدة لدقائق ثم خفتت ومن بعدها ركض چايدن ليحارب مع جيشه، كان الجيش يقاتل بقوة غير عادية، وكأنهم لم يفقدوا معظم قوتهم للتو، يداهمونهم وكأنهم أسود يهجمون على فريستهم، راقبت چايدن وهو يحارب بشجاعة، ويصرخ في الجيش يحمسهم، سمعت الجيش يصرخ ببسالة:

_معًا سنخدم، معًا سننتصر!

توسعت أعيني بقلق حينما لمحت شخصًا يحاول أن يصيب جايدن من الخلف، وقبل أن يصل إليه كان الأمير أرثر قد طعنه بالسيف، تلاقت

أعين أولاد العم وابتسما بخفة ليتابعا القتال، استمرت المعركة لساعة أخرى لتنتهي بانتصار جنود إمبراطورية سيران العظمى، رفع الجنود سيوفهم لأعلى وصاحوا بهتافات النصر، التفت لي چايدن المبتسم بفخر واقترب مني، وقف أمامي وانحنى، تعجبت مما فعل بينما هو استقام وأردف:

_لا أعرف كيف أشكركِ على ما فعلتِه لنا!، لقد انتصرنا والفضل يعود لكِ.

ابتسمت بخفة له وقلت:

_الفضل يعود للجنود الشجعان الذين ضحوا بأرواحهم لأجل المملكة، مبارك لك على النصر، جلالة الأمير.

ربتّ على كتفي بينما يتحدث:

_مبارك لكِ إيلينا، لقد أبطلتِ التعويذة!، لقد استطعتِ فعل ما لم يقدر عليه أقوى الملوك، هذا النصر لكِ أنتِ.

***

مر أسبوع على ما حدث، بعد انتهاء الحرب عادت الأمور لطبيعتها، عاد الأمير أرثر بجيشه لمملكته، وعاد ليام ضمن باقي الجيش لچوكتار، بعد أن شفي هنا هو وباقي الجرحى، ودعته قبل أن يعود وأخبرته أن يرسل سلامي لإيما، وما علمته أن سيتم توحيد الممالك الثلاث مجددًا بعد انتهاء فترة حكم الملوك الحالين، سيتم توحيدها تحت اسم ملك واحد.. چايدن، إنه يستحق هذه المكانة.

لقد اختفى الوشم من يدي وها أنا أقف في الحديقة الملكية لقصر أوكتراس، بعد أن أشعلت النيران في كتاب الإمبراطور وأوراق والد چاك التي أخذتها من الصندوق قبل أن أسلمه للأمير أرثر ليعطيه للأميرة ميرال، هذا الصندوق وما به من رسائل هو ذكرى ثمينة ملك لها، أراقب النيران وهي تحرق هذه الأشياء لتحترق معها ذكرياتي السيئة، سأمحي كل ذكرى سيئة صنعتها هنا وسأحتفظ فقط

بالذكريات الجيدة في قلبي، ولن أنساها إلى الممات، من الأساس مغامرتي هنا لا تُنسى!

شعرت بشخص بجانبي فالتفت لأجده المعلم ويليام، بهدوئه المنبعث من عينيه وقف يراقب النيران بينما يتحدث:

_لم تخيبي ظن معلمكِ بكِ.

ابتسمت له بخفة وتحدثت:

_إذًا الإمبراطور كان يعلم أن مساعده سينقلب عليه؟

_نعم، لقد شعر الإمبراطور بخيبة أمل كبيرة حين اكتشف أن من كان يعتبره أخًا وعونًا يخطط لقتله، للحصول على القلادة وحكم المملكة.

_لذا.. وضعتم تعويذة لا تُبطل إلا بموته، لينقلب كل شيء عليه.

_بالضبط، ومع موته قد تخلصنا من خطر الخونة الذي كان يهدد أمان المملكة.

تنهيدة طويلة خرجت من فاهي، للآن أحاول تصديق أنني أخيرًا قد تخلصت من الخطر الذي كان يحوم حولي.

معلم ويليام:

_إذًا ماذا ستفعلين إيلينا؟ هل ستبقين هنا أم سترحلين لبلادكِ؟

_لم أقرر بعد، أنا في حيرة كبيرة، ما مررت به ليس بقليل، لقد تعلقت بالمملكة والأشخاص هنا، وفي نفس الوقت موطني الأصلي هناك، لا أعلم أين سأعيش لكنني أعلم كيف سأعيش

_كيف؟

_سأعيش بروح متجددة، لن أعود للفتاة الباردة التي لا تأبه لشيء وتهرب دائمًا، لقد تغيرت كثيرًا، شعوري بالمسؤولية والخطر جعلني أحارب بكل ما أملك لأنجو، لأصنع لي بداية جديدة، فمن بين العديد من اللحظات التي مرت عليّ هنا، كانت اللحظة الوحيدة التي أخشاها هي النهاية المفروضة عليَّ الموت، لكن فاجأتني الحياة، كل حدث مرّ عليَّ وظننته الأخير، كان فقط خيط رفيع يوصلني لأحداث أخرى جديدة، كل لحظة كنت فيها يائسة وحزينة واعتقدت بها أن موتي قد أقترب. كانت فقط البداية لأمل جديد. سأعيش بهذا الأمل لما تبقى من حياتي.

نحن البشر مخيرون، تُوجد لنا فقط البداية ونحن من يصنع النهاية.

تمّت بحمد الله

سيلفيا أشرف وهيب

فهرس الفصول

المقدمة ٥

الفصل الأول ٦

الفصل الثاني ٤٨

الفصل الثالث ٨٢

الفصل الرابع ١٢٤

الفصل الخامس ١٦٢

الفصل السادس ٢٠٠

الفصل السابع والأخير ٢٣٧

اكتب رأيك وقُم بإرساله إلى الكاتبة:

لإرسال الصفحة الأخيرة والتواصل مع الكاتبة

افحص الكود التالي: